

حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com

العدد الخامس / السنة الثانية / أكتوبر - ديسمبر 2006



- ... وخاتم المبشرين عن الغيب - فتح الله غولن
- الوهج الروحي في حياة النورسي - أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي
- النأسي بين التبرك والوظيفية - أ.د. أحمد العبادي
- الليل والنهار في القرآن الكريم - أ.د. زغلول النجار
- من "ديتون" الأمريكية إلى "أبنت" التركية - أ.د. إبراهيم البيومي غانم

المحتويات



٢	... وخاتم النبيين عن الغيب / فتح الله كولن
٧	الناسي بين التبرك والوظيفية / أ.د. أحمد العبادي
١٣	الليل والنهار في القرآن الكريم / أ.د. زغلول النجار
١٧	لزومية / أ.د. حسن الأمrani
١٨	مدارس ودروس من "ديتون" الأمريكية إلى "أبنت" التركية / أ.د. إبراهيم غانم البيومي
٢٣	الوهج الروحي في حياة الأستاذ سعيد النورسي / أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي
٢٧	أنفاس ظمننا إليها، إطلالة على الداعية المرتقب / نوزاد صواش
٣١	الضاربون في الأرض / أديب إبراهيم الدباغ
٣٢	الهجرة... مشروع لبناء حضارة إيمانية جديدة / أ.د. عبد الحليم عويس
٣٦	مأساة الأندلس وموقف العثمانيين / اورخان محمد علي
٤٠	العقيدة الإسلامية بين جمال القرآن وتقسيمات علم الكلام / أ.د. فريد الأنصاري
٤٤	الخط الفاصل بين الإيمان والإلحاد: البعث بعد الموت / أ.د. محمد بوزغية
٤٨	قراءة في عنوان ما صنف في الحديث والقرآن / د. محمد حكيب
٥٢	مع النبي ﷺ في أحزانه / أ.د. إسماعيل لطفي حقان
٥٧	العظام البشرية مصدر إلهام للهندسة المعمارية / أ.د. محمد سامي بولاط أوز
٥٨	شيخ الإسلام مصطفى صبري / أ.د. عمار حيدل
٦٣	كأني أكلت / جمال أمين



فتح الله كقولن

زبدة معناها ومحتواها في أسمى صورة وأتوهرها. نوره الأول سباق الأنوار، وطوفان ضوئه الأخير هو ظهوره في العالم الخارجي. ومن جهة أخرى، هو فهرست الآفاق والأنفس، ولب الوجود وعصارتها، وأضواء ثمار شجرة الخلق من حيث الغاية، وسيد الإنس والجن أجمعين باسم الخالق الجليل.

هو فوق الوصف أبداً من حيث جوهره وموقعه، لا نظير له باعتبار ذاته، فريد الكون والزمان بأعماقه الأخروية، وبرهان ظاهر بالرسالة التي يحملها. شهرته تمتد إلى ما قبل آدم النبي، وضيأوه لهجت به الألسن من قبل وجوده، وقدمه تاج رؤوسنا - إحسان للإنسانية جمعاء. وجوده أصفى لؤلؤة في صدفة الوجود، ورسالته أشمل الرسالات. علمه زبدة العلوم كلها، وعرفاته منبع نقي وصاف يجمع حوله أضواء الوجود، وأفق كمرصد هرع إليه الأرواح الصافية المتطلعة إلى اللاهية. العيون حظيت بقراءة

القول الفصل الأخير حول حقيقة "الله والكون والإنسان" هو لحضرة محمد ﷺ الذي هو شجرة الوجود، والعللة الغائية لكتاب الكائنات، وأقوى صوت للدعوة إلى الحق تعالى... إنه هو المخير الأخير "عن الغيب" وعن "غيب الغيب"، وهو المفسر السديد للأشياء والأحداث، وهو المبين للعلاقة بين الإنسان والخالق من غير أدنى لبس، وهو الموضح عياناً وجهاراً مقتضيات هذه المناسبات. هو المرشد إلى القرب الرباني؛ وهو الأول والأقرب إلى الحق تعالى من جهة، والأخير والأعظم أمانة من وجهة أخرى.

صاحب القول الفصل

الملائكة انتظرت، والأنبياء بشروا به، والأولياء غمراه التي تقبس منه النور. مشكاة النبوة اتقدت به بداية، وبه أيضاً ظهرت

وصاية النبوة، يتنور بـ"الروح الأعظم" ويصير بُعداً مهماً من أبعاد حقيقة الإنسان. ويمرور الزمان يبدأ باستشعار الباطن مع الظاهر، والآخر مع الأول.

وإن للوجود ظاهراً وباطناً. الظاهر يُرى بالعين ويُدرَك بالحواس، ويُقَوَّم بالعقل والمحكمة العقلية. أما الباطن فلا تفتح أبوابه إلا من قبل الله لمن خُلِقَ بجهاز يستشعره، فيتم الإحساس به صوتاً ونَفْساً ولوناً ونقشاً مختلفاً عن الظاهر. فالأنبياء يستمعون إلى هذا الصوت والنَفَس بموجات مختلفة الأطوال مدى الحياة، ويتصرفون أبداً بمقتضاه.

وإن حضرة سيد الأنام، عليه أكمل التحايا، رمزٌ وصوتٌ للفائضية المطلقة من حيث جهازه الخاص المناسب مع حاله الخاص. فأنه يُسمعه ما لا يُسمع، ويريه ما لا يرى، ويُقدمه على الروحانيين بإكساب روحه ماهية فوق الزمان والمكان أحياناً، فيتقدم على الملائكة، أكرم عباد الحق تعالى، فيصل إلى "قاب قوسين أو أدنى". وله مكانة وقَدْر متمادٍ ووطيد عند الخلق كدرجته عند الحق تعالى؛ فإنه ما حاد عن الاستقامة قيد شعرة في عمره كله، ووُثِقَ به الجميع من صديق أو عدو، وبلغ المخاطبين بما أوحى إليه من الحق تعالى في بهائه الرباني، ولم يُذكر إلا بالعصمة، ولم يُعرف إلا بالصون الإلهي، وقرأ -دائماً- الطبيعة وما وراء الطبيعة قراءة سديدة، وفسرهما تفسيراً صحيحاً بروحه النيرة وبفطنته النافذة المتفتحة على عوالم المادة وما وراء المادة؛ ولذلك هرع إليه من غير توان صاحب كل وجدان نظيف متنزه عن أي حكم مسبق، وخضعت له أعصى النفوس تمرداً، واستسلمت له أذكي الأدمغة قاطبة؛ إذ قرأت في رسالته غاية خلق العقل. وبفضله انسَلَخ الإنسان من الحيوانية والجسمانية وتوجه تلقاءً أفق في مرتبة حياة القلب والروح. هو -باعتبار أفق الوجود- المفتاح السري للباب الموصل إلى الوجود الخارجي، وهو -باعتبار تحقيق الهدف من خلق الوجود- الهادي إلى الصراط المستقيم الموفي إلى الحق تعالى، ونبع شفاعة السعادة الأبدية.

كل الأنبياء الذين مضوا من قبله قد قالوا ما قاله... والأولياء والأصفياء من بعده كلهم أجمعون -وأحوالهم الخارقة شاهدة على دعواهم- صدقوه وشهدوا على صدقه، وأقروا واعترفوا بأن حظوهم هي منه. فإنه قد قال "الله" ولفَت الأنظار إلى التوحيد. وإن أصوات الأنبياء والمرسلين وأنفاسهم، ومشاهدات الأولياء والأصفياء وكشوفاتهم طراً، تؤيده وتسند.

الأشياء على وجهها الحقيقي بفضل النور الذي نشره في الأرجاء. والآذان استمعت في ترانيم أقواله إلى أنغام روحانية من جواهر الكلمات لم تسمعها من قبل. وكم سرَّ ظهر عياناً بياناً، وكم فكَّر كدرٍ صفاً إلى الصفوة في أجوائه. من رآه واستمع إليه زال عن روحه الصدا، وانقشع عن عينه الضباب. وما أن أخرج عن أول كل أول، وآخر كل آخر حتى عُرف كل مجهول عجزت عن إدراكه عقول البشر، وتحلى غير المعلوم بلباس العلم والمعنى، وأصبح الوجود كله قصيدة شعرية تنشد على كل لسان، ونغماً أبدياً يُفسَّر غاية الخلق ومقصده.

العلوم ما هي إلا قطرة من بحر علمه، والحكمة برمتها رشحة نزرة من شلال معارفه. الأزمنة كلها لا تعدل لحظة من لحظات عمره. كرة الأرض التي لا تزن جناح بعوضة في الكائنات، هي عالم يعدل الوجود بسر كونها مسقط رأسه. هو المقدم في التعيين والبرنامج القدري، وهو صاحب القول الفصل الأخير في قضية النبوة، وهو الشارح الحقيقي للظاهر، وهو الناطق بأسرار الباطن. هو سلطان عرش النبوة بخلق مخلوقاً ملائماً لتلقي الحقائق العلمية والعقلية من روح القدس، وبشعوره الرحيب، وإدراكه الرفيع، وبقلبه المنفوس لما وراء الملكوت، وبسر استعدادده للاطلاع على ما وراء وراء. وهو أفصح ترجمان لعالم الرسالة الإلهية مبلغاً ما تلقاه إلى الأرواح والعقول من غير عارض أو خلل، كجهاز استقبال نوراني منفتح على الماورائيات.

وهو -مع أن له خصوصيات ذاتية سامية- يخبرنا بمقتضى نبوته عن الحق تعالى، ويُعرفنا به، بذاته وأسمائه وصفاته، ويُحَفِّز فينا الشعور بالمسؤولية أمام الحق تعالى. ومن هذه الجهة هو معرّف ومعلم أكبر يُبين ما لا يبين ويشعر أرواحنا بما لا يُدرَك. أما من جهة تبليغ الأحكام الدينية وتعليم القيم الإنسانية وتمثيل الأسس الأخلاقية، فهو مُشرِّع موظف وواضع للقوانين وقول شارح لحقيقة الحقائق.

الجامع بين الظاهر والباطن والأول والآخر

إن النبوة والرسالة وتحت وصايتها الولاية، كما أنها متفتحة على الظاهر، كذلك هي "مُفتَّحة الأبواب" على الباطن. وإن عقول هؤلاء (الأنبياء والرسل والأولياء) أيضاً قد اصطبغت ببصغة هذا النصب الإلهي... لكنها تقف من ورائهم بخطوات، تنتظر الأوامر منهم. إن عقلاً مدركاً لحدوده -مثل عقولهم- داخلاً في

وكان صرحاً للإيمان... يعيش ما يقوله بمعيار أدق من شعرة شطرت أربعين مرة، ويزن تصرفاته بموازين الآخرة الدقيقة، ويميز حياته في عمق كأنه يرى الله، وفي عمق رؤية الله له. هو الأرهف حساسية في تصرفاته، والأعظم جدّاً في المسؤولية، ويسعى حثيثاً في أثر حسن العاقبة ولا يحيد طرفه عين عن الهدف، بل يهرع أبداً إلى النقطة التي اختير لها... وإذ يهرع إليها، يمد للجميع خطوط المعاني حُزماً حُزماً من الروابط بينه وبين الله تعالى.

شارح معنى الوجود

وهو الذي شرح معنى الوجود فربطه بصاحبه الحقيقي، وبين الحكمة المكنونة في لب الأشياء والأحداث، وذكّرنا مراراً بأننا لسنا وحيدين هنا، فشرح صدورنا بإشعار أرواحنا بأننا تحت الرعاية الربانية، وأزال الوحشة من نفوسنا وسما بأرواحنا إلى العلياء بنفحات أنسه، وسقانا مشاعر السكون والاطمئنان التي نشعر بها في ربوعنا وبين أهلينا. فإن كنا نخس بأن كل شيء في محله في هذا المأوى الدافئ، وإن كانت قلوبنا تخفق بعشق الحقيقة، وإن كنا نطلق أنظارنا في آفاق الكون الشاسعة مفكرين متأملين، فهذا كله بفضل النور الذي أوقده في عقولنا. وكل ما نعرفه عن الإنسان والوجود والكائنات برمتها، فهو تفصيل لمجمل ما أودعه في نفوسنا، ونمو لبذور الحقائق التي بثها في أرواحنا.

هو باني الإنسانية من جديد، ولا يزال، وسيبقى بانياً، في أمسها ويومها وغدها. وكما بدل في عصره بحملة واحدة، وبنفخة واحدة، مفاهيم ضالّة، وسلوكيات غير إنسانية، وانحرافات سوء الأخلاق والمزاج المغروسة في الطبائع من آلاف السنين، فسيُسمع صوته -يقيناً وحقاً- للجموع المنفلتة، المنفرط عقدها اليوم، ويضبطهم بضوابطه إن عاجلاً أو آجلاً، ويظهر قوة رسالته... وسمّه -إن شئت- تجديد القراءة السديدة والتفسير الصائب في حقيقة (الإنسان والكون والألوهية) مرة أخرى، واتخاذ الإنسان موقفاً يناسب دوره اللائق به في الوجود.

لقد أرسل حضرة سيد الأنام (عليه ألف صلاة وسلام) برسالة تتعلق بكل أحد وكل شيء. وكان يوفي وظيفته حقها ويؤديها بعمق فتمتلي بحبه الأفئدة وتنجذب إليه القلوب. فهو يتفتق تكاملاً شاسعاً في خلقته، وصدقا منقطع النظير في تصرفاته، وربانية تتجاوز جوانبه المادية دائماً في سلوكياته. وهو -فوق هذه الجماليات الظاهرية الباهرة- صاحب أخلاق رفيعة لم يطلها أحد، سماها القرآن الكريم بـ"الخلق العظيم".. حتى إن من يدخل رحابه لمرة واحدة من غير أحكام مسبقة، لا بد أن يدخل تحت

تأثيره ويتعلق به إلى أبد. وعنده -مع هذه المحاسن والمعالى- بيان يأخذ بالآلآباب؛ فإذا تكلم أبكم أمهر حُذاق اللسان، فيغوصون في مراقبة السكوت، وينجرفون في تيار جذب قوله.

هيئته عليه الصلاة والسلام

وإليك شيئاً من تفصيل ما قلناه آنفاً: لقد وهبه الله تعالى السعة في خلقته الداخلية والخارجية، فهو مهيب في تواضعه، جذاب في شخصيته... حتى إن دَخَلَتْ إلى حضرته أشد النفوس كبراً وغروراً، ارتعشت من هيئته، وتصرفت بغير ما نوت وتصورت؛ وإن رسل كسرى المتكبرين ذهلوا وأُجموا حيال صرح المهابة هذا. ومع هذه الهيبة، وهذا الجد والوقار، كان فيه لين عجيب يجذب إليه النفوس، حتى ليحس من يعرفه عن قرب بأنه أقرب إليه من الولد والأم والأب وكل حبيب، بل يكاد "يدمن" عليه فلا يود أن يغادر مجلسه أبداً. أحواله وتصرفاته كلها تبث ثقة عميقة في القلوب، وأقواله وأفعاله وملامحه تدل على حضوره الدائم أمام الله تعالى. ييث الأمان دوماً، وينشر الاطمئنان في الجميع حُزماً ورُزماً.

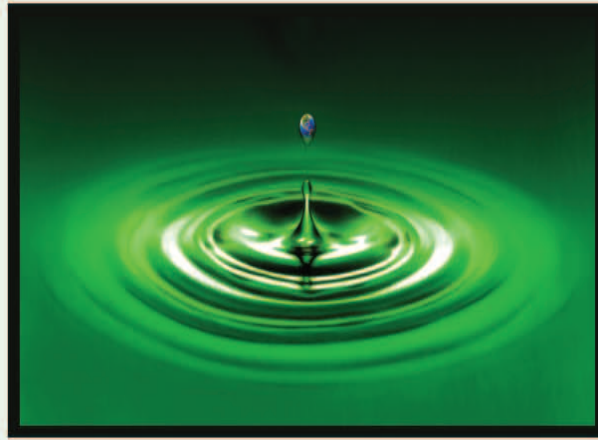
فقد عُرف بالأمين أولاً وآخر... فالأمن يشع من نظره، وكلامه يدور بلا توان حول الأمن، وفي حضوره تسمع نغمات الأمن. وكانت تصرفاته وعقله وروحه وعواطفه ومنطقه في توازن وانسجام تام. وإن ذكاءه المتقدم، وفراسته السديدة، وثباته الذي لا يعرف التردد، عزمه وإقدامه، إستراتيجيته المحيرة للعقول مع تجنبه الكذب والخداع، صبره وثباته حيال أشد الأحوال، وتبسمه في وجه المصائب، وقراءته للملّمات قراءة صائبة، واستخلاصه منها عيراً ملء الكتب، وحلمه الوطيد، ووقاره الراسخ حيال الأحوال الموجبة لأشد العنف والغضب والحدة، لهي نبذة يسيرة من خصاله وخلقته التي تبرز شخصيته المتميزة بين البشرية، وتفصح عن مقامه ومكانته ووقفته الفريدة التي تناسب هذه المكانة السامية. فله المواقف البطولية حيث يضطرب الجميع ويذهلون، إذ تتبدل بها الهزيمة إلى الظفر، والفر إلى الكر، فترفل رايات النجاح الإستراتيجي في خضم المعارك ودخان الحروب.

كان بين أهله رب عائلة لا نظير له ولا شبيه، وبين أصحابه معلماً ومرشداً كاملاً يدلّف شغاف قلوبهم بلبنه الأخوي، وهادياً سديد الرأي لا يخذل من اتبعه، وخطيباً سيداً على الكلام، ذا قلب رباني، وحكيماً أستاذاً في استخدام العقل، ورئيس دولة لم يعرف



ومع مهابته الرائعة المحيرة للعقول الحاصلة من علو الأصالة وسمو النجابة وصلته الوثيقة بالحق تعالى، كان متواضعاً أشد التواضع وكأنه يجمع بين الأضداد، حتى إن من لا يعرف خصاله وسجاياه المذكورة آنفاً، كان يحسبه من آحاد الناس. كان لا يعبر اهتماماً بتعظيم أصحابه وتوقيرهم له، فيقعده معهم ويأكل ويشرب، ويستتر عنهم فوارقه وخصوصياته السامية التي تفرد بها عنهم أشد الستر حتى لا يشعرهم بالتمايز، ويريح من حوله أحياناً بملح من ألوان التحليات الجمالية من العبرة والحكمة والمزاح أحياناً لكي لا يثقل عليهم عبء ما في طبعه من المهابة والعظمة والمحافة؛ فهو يزين عزته بالتواضع، ويلطف مهابته بالشفقة، ويقدم لونه الناسوتي^(١) ليزيد حلاوة إلى شهد مقامه وحلو طعمه.

كان حليماً ومأموناً ورزينا، لبنا أعظم اللين حتى في الأحيان التي تستفز فيها وتثار مشاعر الحقد والكراهة والغضب، فيخفف شدة الطيش وحدة الغيظ، ويسكن بنظرة واحدة عداوة ألد أعدائه؛ وكان كلما أريد سحبه إلى موقف الخصم قفز إلى مرقع الحكم. كان عفواً وسمحاً ما لم تنتهك حرمة الله تعالى أو يهضم حق عام. وفي السيرة النبوية مئات الأمثلة والشواهد على عفوه وصفحه وسماحته.



وفاز به بالعهد عليه الصلاة والسلام

وما كان له نظير في الوفاء بالوعد؛ فلم يخلف وعداً قط ولو مرة واحدة، ولم يرجع عن قول ألبتة، ولم يقل شيئاً ثم خالفه، أو نطق بشيء خلاف الواقع حتى وإن كان إيماء، سواء قبل البعثة أو بعد نيله شرف النبوة. فسيرته صرح للأمانة والصدق والوفاء، وحرمة ضد من يخون العهد والميثاق معلوم ومشهور.

كان سلطان عالم البيان، ولقد بلغ جوهر القول قيمته الحقيقية على لسانه. لم يمسك بيده قلماً ولا قرطاساً، ولم تطالع عيناه كتاباً، ولم يجلس في حلقة درس، ولم يحتج قط إلى أن يقول لأحد "أستاذ"، بل كان أستاذ الكل في الكل، وما من

مثله، وقائدا عظيماً يحول الهزائم إلى انتصارات بحملة واحدة. فأنواع الكمالات كلها تبلغ فيه الذروة العليا، لكنه يتصرف أبداً بين الناس كفرد من الناس، ويعد نفسه واحداً منهم، فيؤديه - من كثرة تواضعه - أن يُسند الناس إليه - أدبا منهم - مقامات رفيعة هو حقيق بها أصلاً، فيحذر أصحابه بين فينة وأخرى من ذلك تحذيراً شديداً قد يصل إلى حد التوبيخ أحياناً.

كان بمثابة "علة غائبة" للوجود، لكنه ما كان يولي اهتماماً بقدر جناح بعوضة. رفع السلاطين إلى العروش وألبسهم التيجان، لكنه عاش زاهداً أشد الزهد، فكأنه صائم عن الدنيا؛ فأشبع ولم يأكل، وألبس ولم يلبس، وهتف بالشكر مئات المرات حيال قطرة من نعمة، مستشعرا فضل الله عليه وإحسانه على الدوام. فهو يسابق الملائكة في مضمار المعرفة الربانية والمحبة والخشية. أحل، كان في الدنيا، لكنه لم يكن دنيوياً، بل كان في طريق العقي... بل لم يكن مرتبطاً حتى بالعقي أولاً وبالذات، ذلك

لأن قلبه كان معلقاً بربه، وعينه في آثاره وفي أسمائه الحسنى التي تضيء على آثاره ألواناً وصوراً ومحاسن شتى. كان ينظر إلى الدنيا وكأنها خليج للعقي، ويراهم وكأنها مزرعة يزرع فيها ويحصد، ويحبل الحاصل إلى الآخرة. وكان يهْبُ ويروح ويغدو كالرياح التي تحمل البذور وتطير بمينا وشمالاً

لتودعها أمانة للخلق والنماء، فكان يعتني بالفقراء ويرعاهم، ويطعم الجوع، وكثيراً ما يبيت هو جائعاً خاوي البطن. إنه سلطان عالمي الدنيا والآخرة، لكنه إذ ارتحل إلى ربه، لم يورث أهله قصرًا ولا عقارًا ولا مالاً ولا ريشاً. فقد عاش عبثة تليق به، وقوم الدنيا تقويماً يناسب شخصيته، ورحل منها رحلة توافق مكانته وعظمته. ومعلوم أنه لم يكن تاركاً للدنيا تماماً، كما أنه لم يكن جامعا لها ومشغولا بها قط. فإنه كان يهتم بالدنيا بقدر حجمها وفنائها، ويهتم بالآخرة وما وراء الآخرة بحسب خلودها وسرمديتها، فيتخذ موقفه منهما بناء على هذا التصور.

الواقع، حتى إن ألد خصومه الذين يترقبون زلة منه ليوقعوا به، لم يجرؤوا على إسناد الكذب إليه، بل عجزوا عن ذلك.

والحق أن من صان لسانه وكل تصرفاته عن مخالفة الواقع صوناً أدق من الشعرة، من طفولته إلى شبابه، ثم إلى سن تشرفه بالنبوة في الأربعين، لا يتصور أن يقوم بادعاء النبوة زوراً. وإن تصوراً كهذا شيء يتجاوز الإثم إلى تعصب كفري أعمى، واستهانة بالعقل والمنطق. هذا، وإن تبليغاته وموضوعات أحكامه رحيمة وسعت الماضي والحاضر والمستقبل، ومحتوياتها متنوعة تتعدى عقول البشر: فهو يتكلم في العقائد، ويضع الأحكام في العبادات، ويتحدث في الشؤون الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والإدارية، وينفذ ما يقول، ويحني ثمرات ما ينفذ، ويتخذ من التاريخ شاهداً على صواب الأسس التي وضعها فيودع هذه الشهادة أمانة في الضمائر المنصفة البعيدة عن الأحكام المسبقة، وبعد ذلك يصدقه بختم التصديق آلاف المفسرين والمفكرين والخبراء المتفنين في فنون كثيرة، ومئات الفلاسفة، على ما قال قول، وعلى الأسس الاجتماعية والاقتصادية والنظم العسكرية والإدارية، والقواعد التربوية التي وضعها. وزد عليهم جميعاً أن ملايين الأولياء والأصفياء يؤيدونه تصديقاً في كل حكم وفي كل بيان لهم، ويهتفون أنهم بلغوا المراتب والمقامات هدايته. لذلك فإن من يقول له "لا"، فهو إما مخبول لا يدري ما يقول، وإما بائس بسوء الحظ مغسول الدماغ. فما شهد الماضي والحاضر أحداً مثله استطاع أن يقول شيئاً أو يضع أحكاماً ثابتة في مسائل كثيرة مختلفة، ولا سيما في موضوعات تتطلب حنكة واختصاصاً ومهارة، فيدوم طرياً وندياً أبداً مع الدهر. وكما نبّه بديع الزمان النورسي رحمه الله: "إن الإنسان قد يستطيع أن يقول شيئاً ذا بال في بضعة فنون أو علوم. لكن حضرة ذاته صلى الله عليه وسلم أدلّ ببلوه في شؤون دقيقة تتعلق بالوجود والأحداث كلها، وقال أقوالاً نافذة في كل زمان ومكان، وبأسلوب بديع في المهارة والحكمة، وباطمئنان من غير تردد وتلكؤ، لا يملك حياله من رآه وعرفه، ومن سمعه فأُنصت إليه من غير حكم مسبق إلا أن يقول: "آمنتُ وصدّقتُ". ■

(*) الترجمة عن التركيبة: عوني عمر لطفي أغلو

الهوامش

(١) الناسوت: الطبيعة البشرية.

(٢) البخاري، الجهاد ١٢٢؛ مسلم، المساجد ٦.

شيء يستطيع أن يحس أسناده الكلية. وفي هذا صيانة من الله لأوامره الإلهية أولاً، وصيانة لملكات النبي الفطرية ثانياً وتالياً، من التأثيرات والتصورات الخارجية، حتى لا تُكدر المكتسبات الذهنية والمعلومات الأجنبية تفسير الأوامر الإلهية، ولا تتلون بلون غير لوّنها، أو تصب في قالب غير قالبها. فكان أمياً بهذا المعنى -ونفوسنا فداء لذلك الأمي-، ولكن له أقوال وأحكام وقرارات في شتى الشؤون من أمور الدنيا والعقي -باعتباره أستاذ الكل- حيرت وأدهشت الكل؛ بدء من المتبحرين في العلوم وامتداداً إلى فحول العباقرة، وإلى العقول الضليعة في الفلسفة، وإلى النفوس الصافية والأرواح المستنيرة. والتاريخ يشهد أن أحداً لم ينل من رصانة بيانه، أو يقدح في حكم له، أو يتجاسر على أن ينتقص من إجراء له.

كان خزينة للمعرفة وحوضاً للعلم نقياً متلاًثماً، لم يعترض أحد على إخباره عن الأحداث الغائبة، ولا إخباره عن شؤون الديانات والمذاهب والثقافات والتقاليد والأعراف العائدة إلى أُمم بائدة في التاريخ، وما كان لأحد أن يعترض، لأنه رسول الله، ومصدر علمه السديد الذي يصب في ذلك الحوض وتلك الخزينة، هو الله تعالى. فكان في البيان سلطاناً بيان وصاحب القول الفصل، وكان في المنطق صرحٌ محاكمة، وفي الفكر بحراً محيطاً كفواً لضخامة مهمته ورحابة رسالته العالمية. إن عباراته من السلاسة والانسياب، وبيانه من الوضوح والفصاحة، وأسلوبه من الغزارة والتلون والبهاء، بحيث يستطيع أن يعبر عن حقائق ملء الأرض في جملة أو جملتين، ويضمّن شؤوناً تسعُ المجلدات في كلمات، وينطق بجواهر، وأما جواهر، ليودعها عند أساطين التفسير والتأويل. وفي حديثه: "أعطيت جوامع الكلم" (١) إشارة منه إلى هذه الرحاب الفسيحة.

وكان الناس يحيطونه بوابل أسئلتهم في كل شأن من كل جهة، فيرد عليهم من فوره بغير أدنى تلكؤ. كلامه سهل يفهمه السواد الأعظم، ويعبر عن مقصوده بعيداً عن التشوش أو التشويش في إيجاز صاف وسبّال. وحين يتكلم يراعي مستوى المخاطبين لكي يفيدهم، من عالم وجاهل، وذكي وغبي، وقليل خبرة وخبير، وشاب وكهل، ورجل وامرأة، فيبعث الاطمئنان في قلوبهم.

وإن أقواله وخطبه كثيرة، حيث خاض في شؤون مختلفة، وحلّل موضوعات متنوعة، لكنه لم يجانب الحقيقة والواقع في أي من أقواله وأفكاره. فلم يستطع أحد أن يلحظ على بياناته وأقواله ما يخالف





أ.د. أحمد العبادي*

ع

العلمي والعملي في المجالات الاجتماعية. ولذلك نرصد في مختلف حقب تاريخ البشرية المعروف، كثيرا من التخطيطات وأضرِب الخرص في المجالات التربوية والاجتماعية والإنسانية بسبب غياب هذا الوعي الأساس. وتأقي الأهمية البالغة للوحدة القياسية الدالة على حالة السواء،

عانت البشرية كثيرا -ولا تزال- في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية من جراء عدم الاستبصار بمعالم وسمات الإنسان السوي والمجتمع السوي، اللذين ينبغي أن يشكلوا الوحدة القياسية التي يجب أن يُتِمَّ شطرها بالمناهج والبرامج التربوية، وكذا بمختلف أنواع الكسب

من كون التعرف على حالات الاختلال والانحراف لا يمكن بدونها، كما لا تمكن بدونها معالجة هذه الاختلالات والانحرافات. وهذه حقيقة ماثلة في مختلف مجالات العلوم المادية والإنسانية، غير أنها أجلي وأظهر في العلوم المادية البحتة منها في العلوم الإنسانية. ولنأخذ مثالا على ذلك علم الطب. فهذا العلم يتمفصل حول محاور ثلاثة:

١- العلم بالجسم وأعضائه في حالة السواء، والتعرف عليه شمولاً وعلى وظائفه، ثم التعرف على أعضائه تفصيلاً وعلى وظائفها، وهو علم الأناتوميا والهيستوسيتولوجيا.

٢- العلم بحالات الانحراف والقصور التي تطرأ على الجسم وعلى أعراضها وأوصافها وأسمائها تفصيلاً، هو علم السيميوپاتولوجيا.

٣- العلم بكيفية رد حالات الانحراف إلى السواء مرة أخرى بالصيلة أو بالجراحة، وهو علم الفارماكولوجيا وعلم الجراحة. والعلمان الثاني والثالث يتفرعان عن العلم الأول، إذ لولا العلم بحالة السواء وضبطها لما أمكن الوقوف على حالات الانحراف ثم لما أمكن ردها إلى حالة السواء بعد ذلك مرة أخرى؛ إذ كيف يُردُّ الاختلال إلى السواء إذا لم يمكن التعرف عليه؟ وهو أمر غير وارد ما لم تكن حالة السواء الشاهدة معروفة بتفصيل وتدقيق بحيث يسهل تبين التغيرات التي تطرأ عليها ذاتاً وأداءً. غير أن هذا -وكما سلف- رغم وضوحه في العلوم البحتة الكونية فإنه ليس بالوضوح نفسه في العلوم الإنسانية والاجتماعية.

يوطيات وأبطال

لقد حاولت البشرية في مختلف مواقعها عبر تاريخها الممتد أن تحل إشكال الوحدة القياسية على الصعيد الاجتماعي من خلال إنتاج "يوطيات" حول طبيعة ومكونات المجتمع الفاضل والمدينة الفاضلة، وعلى الصعيد التربوي من خلال إنتاج مفهوم البطل.

أتمودجا على المحاولات في الجانب الاجتماعي، جهود أفلاطون في "المدينة الفاضلة" وجهود القديس أغوسطين في "مدينة الإله" وجهود الفارابي في "المدينة الفاضلة" أيضاً. وكذا جهود كارل ماركس وبعده لينين وكذا تصورات كل من ستالين وهيتلر وموسوليني للمجتمع الفاضل؛ وهي يوطيات جرّت لعدم مواءمتها لطبيعة الإنسان والكون على العالمين وبالأغلبية قليل.

وأتمودجا على المحاولات في الجانب الفردي ما يوجد في الأعراف المصرية والإغريقية والهندية والصينية وفي حضارات

بلاد الرافدين وكذا في الحضارة الرومانية من إقامة النصب والتمائيل لأشخاص مختارين يرفعون إلى مصاف الأبطال ليكونوا مثلاً تربوية يعاد إنتاجها، غير أن ضعف المؤهلات الإدراكية والآليات التفكيرية لم يكن يمكن من الرسم العلمي والوظيفي لمعالم شخصياتهم وسمات نفسياتهم ومراحل مساراتهم، مما كان يؤدي في كثير من الحالات إلى الانحسار في التقديس.

ويمكن رصد الظاهرة نفسها في كتب "البانتاتوك" والأبوكريف اليهودية التي تبنت بعضها النصرانية. وقد استمر هذا الخط في الحضارة الغربية المعاصرة إذ يلحظ استمرار البحث عن الأبطال لإرسائهم نماذج تحتذى وصب سمات شخصياتهم الأساسية في المناهج التربوية. غير أن هذا النهج كذلك لم يحقق لغياب الاستبصار بحقيقة الإنسان السوي ودوره الكوني إلا نتائج جزئية.

تقديس أم حرمان من ثمرات النبوة؟!

ساهم اعتقاد طوائف كثيرة من النصارى بأن المسيح ابن الله (!) في حرمانهم الكلي أو الجزئي من التأسي بني الله عيسى عليه السلام، إذ كيف يُتأسى بمن هو ابن الله؟! فكان هذا الاعتقاد متيحاً لهامش غير قليل من راحة الضمير -ولو في حالة المخالفة لتعاليم المسيح عليه السلام- عند إنسان حضارة "Christendom" على حد تعبير "مارشال هودسون" لأن ذاك ابن الله، وإذا أخطأ الإنسان العادي في اتباع جوانب من تعليماته فلا حرج (!) الأمر الذي حاول القديس "بينديكت" استدراكه في قانونه التربوي المشهور "Code de St Benedict"، غير أنه لصرامته الشديدة كان غير ذي قابلية للتحقق خارج بعض الأديرة المحدودة جداً.

ويمكن رصد القطائع نفسها بين النبي والأتباع -وإن بشكل مغاير- في ديانات أخرى بسبب رفع النبي فوق مصاف البشر؛ بل وربما إلحاقه في بعض الأحيان بمصاف الآلهة؛ مثل ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ (النوبة: ٣٠).

الإسلام وردم الهوة بين المتأسي والمتأسى به

حين نبحت إشكال التأسي في القرآن المجيد وفي السنة النبوية المطهرة نجد تمحوراً حول المحاور الكبرى الآتية:

١- النبي بشر عبدٌ لله مثل البشر، غير أنه اصطفي بعلم الله ليوحى إليه

ونجد ذلك في آيات كثيرة من كتاب الله منها قوله تعالى: ﴿قُلْ



العقائيل الحائلة دون هذا الإنجاز الضخم (التأسي) الذي عليه يقوم تحصيل السعادتین فی النشأتین بالتوکل علی الله تعالى.

٣- النبي شاهد وشهيد مؤيد

النبي هو الوحدة القياسية الشاهدة التي تمثل حالة السواء في المجال الإنساني والتي بالنظر الواعي إليها يتم التعرف على الاختلالات التي في هذا المجال جمعاً وإفراداً، بذلك يحصل إمكان العمل على ردها إلى حالة السواء، وتلك نعمة من الله جلّی؛ حتى إذا تمت إفادة الأمة من النبي فإنها بدورها تصبح وحدة قياسية على الصعيد الاجتماعي والحضاري يمكن التعرف عليها من خلال التعرف على الاختلالات في هذه الأصعدة ومن ثم يمكن هذا التعرف من العمل على ردها إلى حالة السواء^(٥) وهذا هو ما يتجلى في قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (الحج: ٧٨). وفي قوله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣).

وحتى يكون النبي بعد اصطفاؤه لهذه الوظيفة التكوينية الخطيرة قادراً على الاضطلاع بها، يكون إنعام الله بالتأييد. قال تعالى في معرض الكلام عن الرسل عامة ومن اتبعهم من المؤمنين: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ (المجادلة: ٢١-٢٢).

وقال ﷺ عن نبيه عيسى عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ (المائدة: ١١٠). وقال تعالى عن نبي الختم ﷺ: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال: ٦٢).

كما أن النبي لهذا القصد -قصد أن تمثل فيه الوحدة القياسية الشاهدة- يُصنع ظاهراً وباطناً على عين الله. وقال ﷺ عن نبيه موسى عليه السلام: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾

إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف: ١١٠). وقوله ﷺ: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ (الإسراء: ٩٣). وقوله عز من قائل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ (الفرقان: ٦).

وتثبيتاً لهذه الحقيقة قال ﷺ: "أجلس كما يجلس العبد وأكل كما يأكل العبد، فإنما أنا عبد"^(١). وقال عليه الصلاة والسلام: "إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد"^(٢). وقال ﷺ: منعاً لأسباب إنتاج الفجوات السابقة^(٣) بين الأنبياء والمؤمنين: "لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم"^(٤).

وعموماً فإننا نجد في القرآن المجيد التأكيد على عبودية الأنبياء عليهم السلام، سداً لكل ذريعة قد تؤدي إلى إحداث هوة بين النبي والمؤمنين. فقال ﷺ حكاية عن المسيح عليه السلام: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ (مريم: ٢٩-٣٠). وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ص: ٣٠). وقال عز من قائل: ﴿وَإِذْ ذَكَرْنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ (ص: ٤١).

٢- التأسي في القرآن المجيد يتم بالنظر إلى النبي المثال، فبالنظر إلى الحال ثم العمل على الانتقال من الحال إلى المثال

قال تعالى في معرض الكلام عن نبيه إبراهيم عليه السلام وعن أتباعه الخالص: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ (المنحعة: ٦). وقال ﷺ عن خاتم النبيين سيدنا محمد ﷺ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١).

فالأنبياء إذن مثال هاد لمن قام في قلوبهم الشوق والتوق إلى ما عند الله ﷻ وتجلّى هذا الشوق وذاك التوق بالذكر الكثير له ﷺ. والأنبياء هم الوحدة القياسية المرجع التي تمثل حالة السواء الشاهدة التي ينبغي أن يرصد من خلالها الحال لكي يتم العمل العالم المهتدي على نقله إليها. فهو إذن شوق وتوق وذكر كثير ونبي شاهد وعمل دؤوب عالم بفضل من الله كبير مع وجوب الانتباه إلى

(طه: ٣٩). وقال تعالى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (طه: ٤١). وقال ﷺ عن خاتم النبيين: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ (الشرح: ١-٤). وقال ﷺ في هذا المعنى: "أَدْبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي" (٦). فكانت النتيجة في حقه ﷺ هي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (الفلم: ٤). ومن أجل ذلك كان اتباعه والتأسي به ﷺ هو المراقبة إلى مرضاة الله ومحبته. وقال عز من قائل: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (آل عمران: ٣١).

نحو استئناف التأسيس المنهاجي لعلم العامل مع آثار النبوة
إن مكونات علم التأسي منتشرة بفضل الله في سجلات السنة النبوية المطهرة ومجامع التفسير ومصنفات علم التزكية والتصوف وكذا في كتب الفقه والأصول ولا تحتاج إلا إلى الجمع والمنهجية. فالآيات المباركة في كتاب الله الكريم قد ألفت الأنوار حول الصفات المحورية للأنبياء والرسل وفي مقدمتهم إمامهم وخاتمهم سيدنا محمد ﷺ. كما أن المصنفات في السمائل النبوية وفي دلائل النبوة قد ألفت الأضواء على شهادته ﷺ وعلى هديه عليه الصلاة والسلام. كذلك، فكتب السيرة عامة قد حاولت رصد حياته الشريفة ﷺ بدقائقها وتفصيلها، فحصلت عندنا بحمد الله بمجامع ما تحتاج إلا إلى التثمين والتوظيف. ويمكن تبين المعالم الكبرى لعلم التأسي على المستويين الفردي والجماعي كما يأتي:

١- الوحدة القياسية على المستوى الفردي

لقد ساد بين المسلمين في الأزمنة الأخيرة من تاريخهم، على خلاف ما كان عليه الأمر في عهد الصحابة الكرام ﷺ، التعامل التبركي مع آثار ودلائل النبوة وسمائل النبي ﷺ وسيرته العطرة عليه الصلاة والسلام. وفي ذلك خير كثير في ذاته، غير أنه لو شُفِعَ بالوظيفية لكان الخير أعم وأتم، ونقصد بالوظيفية هنا أن يتم طرح الأسئلة العملية على آثار النبوة من أجل تبين أوجه الشهادة النبوية في مجال مخصوص، وتحديد منهجية الرد إلى الوحدة القياسية..

وهي أسئلة لا يمكن طرحها بطريقة سليمة إلا من لدن العالمين بالمجال قيد الدرس، إذ العلم بالمجال هو الذي يمكن من تلمس مواطن الهدى النبوي فيه للتأهيل الناجم عن استتباب التضاريس المعرفية والمركبات المفاهيمية والأنساق القياسية ذات الصلة بالمجال

في أذهان المشتغلين به، مما لا ينتج إلا بطول الممارسة للبحث في مجال معين، والتعاطي مع المشاكل المنهجية التي فيه. ففي التربية مثلاً، لن يكون أقدرُ على مساءلة آثار النبوة في هذا المجال من التربويين، لمكابدهم له ولمعاناتهم البحثية داخله، معاناة تنشئ الشوق والتوق وكذا الاستعداد لوجدان الحلول. وهل أقدر على استجلاب الدرر من أعماق البحار ممن يعرفه ويعرف قيمته؟! وأحلى مثال على ذلك في مجال التربية محاولة الجواب عن السؤال المؤرق الذي مفاده: من هو الإنسان الأمثل الذي ينبغي أن يكون

القطب الجاذب للمناهج والبرامج التربوية بحيث تتعنى الوصول بالخاضعين للعملية التربوية إلى أفقه، دونما خشية من آثاره المضادة؟ وإذا إن البشرية اليوم تعيش في حيرة بهذا الخصوص من جراء توهيم عدم التوافر على مثال حي خلو من النقائص، فإن أهل الاختصاص -بدعوى الوظيفية- يحاولون النظر في ما هو متعارف على كونه مشروعاً مجتمعياً لاستخلاص مختلف الاحتياجات في الموارد البشرية ثم لتصيير تيسير هذه الاحتياجات وتوفيرها أهدافاً تربوية تسكب في البرامج التربوية وتبدع مناهج تربوية وتُصمَّم لتحقيقها.

وإذا علم أن المشاريع المجتمعية نفسها ناتج التدافع بين موازين القوى في المجتمعات فإن الأمر يصبح أكثر تركيها وتقييداً. فالأقوى والأكثر نفاذاً هم الذين يصوغون معالم المشروع المجتمعي ويشكلون العقول لقبوله، وذلك عن طريق حماسي: الإبتسليم والأكاديم والاقتصاد والسلطة والإعلام.

فالإبتسليم الذي يجمع بين الرؤية للعالم "الكوسمولوجيا" والأطر المرجعية/البرادكيمات (Paradigma) والبطوبيا والمنهجية. إما أن يكون وليد -انطلاق استنباطي من الوحي- أو توليد فلسفي مقولاتي نسبي حر، أو إملاء متحكم "تومونكلاتورا" يفرض ما يريد مثل ما نقل عن فرعون في كتاب الله ﷻ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (غافر: ٢٩). وجلي أن النمط الأخير هو السائد في عالمنا بألطف الطرق وأدقها أحياناً، وبأصفيها وأعنفها أحياناً أخرى.

فيما أن الأكاديم يأتي في الدرجة الثانية ضمن النمط الإيملائي التحكيمي بخلاف النمط الاستنباطي من الوحي والنمط الفلسفي المقولاتي النسبي الحر حيث يكون الإبتسليم متفرعاً عن الأكاديم، مما أن الحال كذلك في النمط الإيملائي التحكيمي، فإن الفرد المتحكم أو الجماعة المتحكمة تكون هي المنتجة للإبتسليم



والفارضة له على الآخرين. وهذا لا يُخلى بحال ساحة الخاضعين من المسؤولية. يقول ﷺ: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين؟ ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ فاستخف قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (الزعر: ٥١-٥٤).

ويأتي دور المكون الاقتصادي الذي يكون عموماً بأيدي فاضلي النوموكلاتورات بتصوير الأكاديم في وضع التابع حتى في عين كينونتته، إذ التمويل للجامعات ومراكز البحث والأبحاث التي تُجرى فيها يصبح مشروطاً بالسير في سياق الإبتيم السائد، رغم أن الحق مع موسى ﷺ!

فيقع الأكاديم في التنظير لأنماط التوجهات والسلطة المادية والمعنوية والدساتير والقوانين والوسائل الممكنة من حماية وتنزيل الإبتيمات السائدة فهي حماية متبادلة بين السلطة والإبتيم المسخر للأكاديم.

ليرفد الأكاديم بعد ذلك الإعلام بحمولاته الداعمة الداعية إذ لن يُنتج الأكاديم في هذه الحال إلا التوجهات والرؤى المتفرعة عن الإبتيم الحاكم.

فهذه حلقة مفرغة محكمة قادت وتقود العالم نحو أزومات صفيقة. وآية إفراغها وإحكامها أن المشاريع المجتمعية التي من المفروض أن تستهدي بها علوم التربية في وضع البرامج والمناهج التربوية لن تمنح سوى هذا الهدي التحكمي المفرغ للإنسان من إنسانيته.

ومن هنا فإنه لا سبيل للخروج من هذه الأزمة إلا بالتعرف على الإنسان الشاهد -الوحدة القياسية- الذي يمثل حالة السواء والذي من خلال التعرف على بنائه النفسي والشخصي والقصدي يمكن الشروع في العمل على إنتاج العلوم الوظيفية والمناهج العملية الممكنة من ردّ الاختلالات إلى حالة السواء. وهنا الدور المحوري الخطير لوظيفة النبوة ووظيفة الذكر الذي تأتي به متى ما حلّ الرشد في التعامل معهما والتأسي بهما.

فالتعرف على حالة السواء -وكما تقدم- يمكن من تجريد المثال التفصيلي الذي ينبغي أن يشمر -من خلال البرامج والمناهج- للسير بالمتربّين نحوه بغير عوج ولا أمت. وهذا مضمار -في العلوم التربوية- للبحث والإبداع فسيح خصيب.

ودائماً في علاقة بالوحدة القياسية على المستوى الفردي فإن علم النفس وعلم النفس السلوكي وعلم التحليل النفسي كلها

علوم تعاني الأمرين لغياب العلم بماهية حالة السواء، ولا شك أن أهل هذه المجالات إن أعملوا عقولهم ووجدانهم لتجربتها من آثار النبوة، فسوف يحلون إشكالات أليمة ومكلفة.

إن إنعام الله بأن تولّى ﷺ في مرحلة الختم بذاته العلية حفظ الذكر: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩)، فحفظت بذلك آثار النبوة المنيرة، واستمر إمكان التعرف على النبي الشاهد وعلى حالة السواء من خلاله.. إن هذه النعمة الجلّى إن شكرت بحسن التوظيف والشمير، ولم تُكفر بالإنكار والاستهتار لمن شأها أن تهدي العالمين إلى مستقبلات أكثر إشراقاً.

٢- الوحدة القياسية على المستوى الجماعي

لقد عانت البشرية كثيراً على الصعيد الاجتماعي من آثار الجهود الخارصة لتبين معالم وسمات العمران البشري الأمثل، كما عانت عبر تاريخها من إملاءات وتحكمات المستبدّين أفراداً وجماعات. وقد كانت الذعائر والتكاليف باهضة، إذ كم قلّم ويقدم من الأبرياء الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً حطّاً لهذه المشاريع البيوطوبية، ليتبين بعد حين أنها لم تكن سوى سراب يباب، ولات حين مناص، وما الحالة السوفياتية منّا بعيد.

وبما رحمة من الله تعالى فقد جعل ﷺ الوحدة القياسية على المستوى الاجتماعي تتمثل في المجتمع النبوي حيث تمكن النبي الخاتم ﷺ من جعله هداية الله وتوفيقه يُنتُ كله بالهداية للتي هي أقوم فضاءً وعمراناً وإنساناً ووظائف ومراكز وعلائق.

وقد كان البدء بأن تم تغيير اسم مهاجر الرسول الخاتم ﷺ من طيبة ويثرب إلى المدينة -بألف ولام التعريف- ليفهم أن العمران الشاهد كان هو ذلك.

ولئن تكلم الفلاسفة عن المدينة الفاضلة وفاقوا إلى التعرف على الوحدة القياسية بهذا الخصوص، فإن النبوة -بأمر الله وفضله- قد أنشأها واقعا حيا نابضا حفظت معالمه المركزية رغم كل التفريط والتقويض الذي يندّر مثله عن البشر.

فألني الخاتم ﷺ قد زرع آيات الوحي وعلاماته وبصائره في نفوس أصحابه الكرام ﷺ، فَانْدَهَقَتْ منها إلى واقعهم لتكون هدايات خالدة للمحجة البيضاء التي ليّلها كنهارها ولا يزيغ عنها إلا هالك.

إن في كتاب الله كما في سنة سيدنا رسول الله ﷺ البنيات الوافرة على السُّلط والمراكز والأدوار والتدبيرات والوظائف والعلائق والنماذج والأخلاق والقيم التي ينبغي أن تشخص في المجتمع الشاهد؛ في حالة السراء وفي حالة الضراء، في حالة الشدة

وفي حالة الرخاء، في حالة السلم وفي حالة الخوف وكذا الحرب والأواء،^(٧) مما ليس ينتظر إلا العقول المتمرسه الخيرة لطرح الأسئلة المنهجية من أجل رفع صرح علم التأسّي على الصعيد الاجتماعي.

خاتمة

وجب ختاماً التنبيه إلى بعض الأسس المهمة من أسس علم التأسّي وأكدها:

١- أن يعلم المتأسّي حيثيات السياق الزماني والعماري الذي يوجد فيه، وحيثيات سياق المتأسّي به ﷺ الزمانية والعمارية والبيداغوجية.^(٨)

٢- أن يعلم المتأسّي الفروق الأنثروبولوجية والثقافية والعرفية وغيرها بين السياقين حتى إذا ساءل في أي مجال من المجالات، استدمج هذه الفروق ليكون التنزيل سليماً، ولا يخفى ما يقتضيه هذا من جهد بحثي منهج.

٣- أن يستدمج المتأسّي العلم بالمقاصد العامة للنبوة، رحمتها وجمالها وشرائعها حتى لا يفرط في الأصول لحساب الفروع أو يقدم ما من شأنه أن يؤثر أو العكس... وهذا داخل ضمن فقه الموازنات والترجيحات. وقد قام علماء الأمة جزاهم الله خيراً بجهود وضيئة في هذه المضامير.

٤- أن يستحضر المتأسّي وجوب النظر في المآلات، واعتبارها حتى لا يكون جالبا لمفاسد على نفسه ومحيطه من حيث يربد جلب المصالح، وكثيراً ما يحصل ذلك إذا أغفل البعد المستقبلي في التنزيل.

٥- كما أن من أكد الشروط أيضاً وجوب المقاربة التكاملية التي لا تهمل جانباً من الجوانب أو تطغيه، بل تحرص على حضورها ومراعاتها جميعاً بشكل مقدر متوازن.

وبدون مراعاة هذه الشروط فإنه لا يمكن تفعيل وظيفة ودور الشهادة كما جاءت في مثل قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣).

بقيت الإشارة أخيراً إلى أن في تراثنا جهوداً مباركة وجب استئنافها في هذا الاتجاه لعلماء أفاضل هم بسبق حائزون تفضيلاً مستوجبون من أمتهم ثناءها الجميل، كأمثال القاضي عياض السبتي في "شفائه" والشاطبي في "موافقاته" و "اعتصامه" وابن القيم في "زاد المعاد" والصالح في "سبل الهدى والرشاد" وشاه ولي الله الدهلوي في "الحجة البالغة" وبيدع الزمان سعيد النورسي

في "رسائل النور" وعبد الحي الكتاني في "التراتب الإدارية في الحكومة النبوية" وغيرهم ممن وجب البناء على جهودهم وتتميرها. كل ذا دون فقدان الاستبصار بأنه رغم كل ما يمكن أن يبدل في مجال علم التأسّي، فإنه يبقى مجالاً متجدداً بتجدد الأزمنة والأمكنة والأحوال والأعراف والعادات. ويرحم الله الإمام السهيلي إذ سَمَّى سيرة رسول الله ﷺ: "الروض الأنف"^(٩).

والحمد لله رب العالمين. ■

(٧) الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء - المغرب

الهوامش

(١) شعب الإيمان للبيهقي، ١٠٧/٥.

(٢) مجمع الزوائد للهيتمي، ٢٠/٩؛ ابن ماجه، الأطعمة ٣٠.

(٣) فالنبوة مؤسسة واحدة تكامل لبنائها ويستدرك اللاحق منها منهجية التصديق والهيمنة ما كان في السابق ليخلص البناء في النهاية كاملاً شاملاً حجة ﴿لَقَدْ أَتَى عَلَى النَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (النساء: ١٦٥). ﴿أَمَّا الرُّسُلُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا يَفْرِقُونَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

(٤) البخاري، أحاديث الأنبياء ٤٨

(٥) يلاحظ أن حالة السواء في كتاب الله نسق مفتوح أخذ بعين الاعتبار للخصوصيات والسياقات، وهو ما نرجو بعون الله تفصيل القول فيه في بحث لاحق.

(٦) فيض القدير للمناوي، ٢٢٤/١.

(٧) وما أروع الصورة المشرفة التي يعرضها كتاب الله لمجتمع المدينة الشاهد وهو بعد في طور التكوين في مثل قوله تعالى من سورة الحشر ﴿وَالَّذِينَ يُبَوِّعُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحْجُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجُودُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوَفِّ شَيْءَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (الحشر ٩-١٠). وفي سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والفرقان والطلاق والمجادلة وغيرها غرر بهذا الصدد لا تنتظر إلا التحلية المتجددة. ولعل تنبه الإمام مالك بن أنس الأصبحي ﷺ إلى هذه الحقيقة بشكل عام كان وراء افتراعه لأصل من أصول مذهبه المبارك، حيث جعل "عمل أهل المدينة" أصلاً من أصول التشريع لما تضمنه هذا المجتمع الشاهد من هدايات لن تنكشف كل حقائقها إلا عبر الزمن. كما علم أهل المدينة أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ لنبهه إلى أهمية حفظ هذه الوحدة القياسية الاجتماعية في مرحلة التكوين حتى تثبت أركانها، كان قد نهي الصحابة رضوان الله عليهم عن مغادرة المدينة المنورة حتى يستتب البناء وتحفظ الشهادة، فلم يتمكنوا من مغادرتها إلا بعد وفاته ﷺ.

(٨) لأنه ﷺ جاء معلماً للناس ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٥١). فوجب أن يؤخذ هذا الجانب التعليمي أيضاً بعين الاعتبار حين التأسّي.

(٩) أي الروض البكر الذي لم يدخل قط.



كن نقاد نفسك وخصيم أخطائك كأنك مدع عام،
وابحث عن تبرير لأخطاء غيرك كأنك محام...

الليل والنهار في القرآن الكريم



أ.د. زغلول النجار*

ج

والليل والنهار آيتان كونيتان عظيمتان من آيات الله في الخلق تشهدان على دقة بناء الكون، وعلى انتظام حركة الأرض حول محورها المائل بقدر محدد، وبدقة فائقة في مدار محدد حول الشمس، وما يستتبعه ذلك من تحديد لسنة الأرض، وتبادل لفصول المناخية، ومرور للشهور والأسابيع والأيام، وتعاقب الليل والنهار على نصفي الأرض.

التبادل المنتظم بين الليل والنهار

إن التبادل المنتظم بين الليل المظلم والنهار المنير على نصفي الكرة الأرضية هو من الضرورات اللازمة للحياة الأرضية، ولاستمرارية وجودها بصورها المختلفة حتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها. فبهذا التبادل بين الظلمة والنور يتم التحكم في توزيع ما يصل إلى الأرض من الطاقة الشمسية، وبالتالي يعين

جاء ذكر الليل في القرآن الكريم اثنتين وتسعين مرة، وفي المقابل جاء ذكر النهار في القرآن الكريم سبعة وخمسين مرة. كما وردت ألفاظ "الصباح" و"الإصباح"، و"الفلق"، و"بكرة" ومشتقاتها بمدلول النهار في آيات أخرى عديدة، وجاءت كلمة "يوم" أحيانا بمعنى النهار في عدد من آيات القرآن الكريم.

وفي هذه الآيات يمن علينا ربنا تبارك وتعالى بتبادل الليل والنهار ويعتبرهما من آياته الكبرى، لأن في ذلك استقامة للحياة على الأرض، وعونا للإنسان على تحديد الزمن، والتأريخ للأحداث المتتالية. وبدون هذا التبادل بين الليل المظلم والنهار المنير تتوقف الحياة على الأرض، ويتلاشى إحساس الإنسان بمرور الزمن، وتتوقف قدرته على متابعة الأحداث والتأريخ لها.



تشير إلى تبادل الليل والنهار في صياغة معجزة. ومن جوانب ذلك الإعجاز إشارتها إلى أعداد من الحقائق الكونية التي لم تكن معروفة وقت تنزل القرآن الكريم، ولا لقرون متطاولة من بعد ذلك مما يجزم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ويشهد للنبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة الحقة والرسالة الخاتمة.

الشواهد العلمية المستقاة من تبادل الليل والنهار

١- التأكيد على كروية الأرض: فإن تبادل الليل والنهار على نصفي الأرض وتعاقبهما وإيلاج كل منهما في الآخر، واختلافهما وتقليبهما، وإدبار أحدهما وسفور الآخر، وإغشاء نور النهار بملكة الليل، وتجليه حلقة الليل بنور النهار، وتكوين الليل على النهار، وتكوين النهار على الليل، كل ذلك إشارات ضمنية رقيقة إلى كروية الأرض. فلو لم تكن الأرض كرة ما أمكن حدوث شيء من ذلك أبداً، وأبسطه تبادل الليل والنهار على نصفي الأرض.

هذه الحقيقة العلمية جاءت بها القرآن الكريم من قبل ألف وأربعمائة من السنين في وقت ساد فيه الاعتقاد باستواء الأرض لدى كل الناس، على الرغم من إثبات عدد من قدامى المفكرين غير ذلك.

ونزول الآيات القرآنية العديدة بهذه الحقيقة الكونية الثابتة في الجزيرة العربية التي كانت في ذلك الوقت القدم بيئة بدوية بسيطة ليس لها أدنى حظ من المعرفة العلمية ومناهجها ولا بالكون ومكوناته، لما يقطع بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أبدع هذا الكون بعلمه وحكمته وقدرته، والذي هو أدرى بصنعه من كل من هم سواه، وأن سيدنا ونبينا محمداً ﷺ كان موصولاً بالوحي، ومعلماً من قبل خالق السماوات والأرض.

٢- التأكيد على دوران الأرض حول محورها أمام الشمس: فلو لم تكن الأرض كروية، ولو لم تكن تلك الكرة تدور حول محورها أمام الشمس ما تبادل الليل والنهار. وهذا الدوران عبرت عنه الآيات القرآنية في أكثر من عشرين آية صريحة بتعبيرات ضمنية رقيقة، ولكنها مصاغة صياغة علمية دقيقة، تبلغ من الدقة والشمول والكمال ما لم يبلغه العلم الحديث. وقد أنزلت هذه الآيات مؤكدة حقيقة دوران الأرض حول

على التحكم في درجات الحرارة والرطوبة وكميات الضوء في مختلف البيئات الأرضية؛ كما يعين على التحكم في العديد من الأنشطة الحياتية وغير الحياتية من مثل التنفس والأيض في كل من الإنسان والحيوان، وعمليات النتج والتمثيل الضوئي في النباتات؛ ويتم ضبط التركيب الكيميائي للغلافين الغازي والمائي المحيطين بالأرض، وضبط الكثير من دورات النشاط الأرضي من مثل دورة الماء بين الأرض والطبقات الدنيا من غلافها الغازي، وحرركات الرياح والسحاب في هذا الغلاف، وتوزيع نزول المطر منه (بتقدير من الله)؛ كما تتم دورة تعرية الصخور بتفتيتها، ونقل هذا الفتات أو إبقائه في مكانه من أجل تكوين التربة أو الرسوبيات والصخور الرسوبية وما بها من خيرات أرضية.

وبالإضافة إلى ذلك فإن في اختلاف الليل المظلم والنهار المنير تقسيماً لليوم الأرضي إلى فترة للحركة والعمل والنشاط، وفترة للراحة والاستجمام والسكون. فالإنسان محتاج إلى السكينة بالليل كي يخلد فيه إلى شيء من الراحة النفسية بالعبادة والتفكير، والراحة البدنية بالاسترخاء والنوم والإغفاء حتى يستعيد كلاً من نشاطه البدني والذهني، ويستجمع قواه فيتهيأ للعمل بالنهار التالي. وما يتطلبه ذلك من القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض. وقد ثبت علمياً أن أفضل النوم يكون بالليل، وأقله فائدة هو نوم النهار (فيما عدا فترة القيلولة). كما ثبت أن كثرة النوم بالنهار تؤثر في نشاط الدورة الدموية في جسم الإنسان، وتهدده بالنحس في العضلات، وتؤدي إلى تراكم الدهون وزيادة الوزن، وإلى العديد من صور التوتر العصبي والقلق النفسي.

ورما كان من مبررات التوجيه الرباني بالنوم بالليل والنشاط بالنهار أن طبقات الحماية التي أوجدها ربنا تبارك وتعالى في الغلاف الغازي للأرض، ومن أهمها "النطق المتأينة" وما بها من "أحزمة الإشعاع" تمتد بالنهار فتزداد قدراتها على حماية الحياة الأرضية مما يسمح للإنسان بالحركة والنشاط دون مخاطر. وهذه النطق تنكش انكماشاً ملحوظاً بالليل، مما يقلل من قدراتها على الحماية؛ فينصح الإنسان بالركون إلى النوم والراحة حماية له من تلك المخاطر. وفي ذلك يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۖ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ (النبا: ١٠-١١). قال تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (يونس: ٦٧).

من هنا كان التدبر في ظاهرة تعاقب الليل والنهار دعوة إلى الخلق كافة للإيمان بالله. ومن هنا أيضاً جاءت الآيات التي



محورها في وقت ساد فيه الاعتقاد بثبات الأرض ورسوخها، بمعنى عدم دورانها أو تحركها، وهو أمر معجز للغاية.

٣- التأكيد على أن سرعة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس في المراحل الأولى لخلق الكون كانت أعلى من سرعتها الحالية: وهذه الحقيقة لم يتوصل اليها العلم المكتسب من إدراكها إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، وقد سبقها القرآن الكريم بأكثر من أربعة عشر قرناً، وذلك بالإشارة إلى هذه الحقيقة في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: ٥٤).

وإغشاء النهار بالليل جاء في القرآن الكريم أربع مرات (الأعراف: ٥٤، الرعد: ٣، النسيم: ١-٤، الليل: ٢١). والمرة الوحيدة التي جاءت فيها الصفة ﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ أي سريعاً، هي هذه الآية الرابعة والخمسون من سورة الأعراف، لأنها تتحدث عن بداية خلق السماوات والأرض؛ وهي حقيقة مدونة في هياكل الحيوانات وأخشاب النباتات بدقة بالغة، ولم يكن لأحد من الخلق إلمام بأية فكرة عنها إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين حين اكتشف العلماء أن تبادل الليل والنهار كان يتم في العقود الجيولوجية القديمة بسرعة فائقة جعلت من عدد الأيام في السنة عند بدء الخلق أكثر من ألفي يوم، وجعلت من طول الليل والنهار معاً أقل من أربع ساعات. وكان إبطاء سرعة دوران الأرض حول محورها بمعدل جزء من الثانية في كل قرن من الزمان آية من آيات الله في إعداد الأرض لاستقبال الحياة، لأن صور الحياة -وفي مقدمتها الإنسان- ما كان ممكناً أن تتلاءم مع هذه السرعات الفائقة لدوران الأرض، وكذلك مع قصر أو طول كل من الليل والنهار.

٤- التأكيد على سبوح الأرض في مدارها حول الشمس: يعبر القرآن الكريم عن الأرض في عدد من آياته بالليل والنهار كما جاء في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٣)، وفي قوله عز من قائل: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس: ٤٠).

وذلك لأن كلا من الليل والنهار عبارة عن ظرف زمان وليس جسماً مادياً، ولا بد للزمان من مكان يظهر فيه. والمكان في هذه الحالة هو كوكب الأرض الذي يقتسم الليل نصفه،

والنهار النصف الآخر في حركة دائبة وتبادل مستمر. ولو لم تكن الأرض كروية، ولو لم تكن تدور حول محورها أمام الشمس لما تبادل سطحها الليل والنهار في تعاقب مستمر. ولولا جري الأرض في مدارها حول الشمس ما تغيرت البروج. ولو لم تكن الأرض مائلة بمحور دورانها على دائرة البروج بزواوية مقدارها ٦٦،٥ درجة تقريباً ما تبادلت الفصول. ولولا علم الله بجهل الناس لتلك الحقائق في الأزمنة السابقة لأنزل الحقيقة الكونية بلغة صادقة قاطعة، ولكن لكي لا يفزع الخلق في وقت تنزل القرآن الكريم أشار إلى جري الأرض في مدارها المحدد لها حول الشمس بسبح كل من الليل والنهار. والسبح لا يكون إلا للأجسام المادية في وسط أقل كثافة منها. فالسبح في اللغة هو الانتقال السريع للجسم المادي بحركة ذاتية فيه من مثل حركات كل من الأرض والقمر والشمس وغيرها من أجرام السماء، كل في مداره وحول جرم أكبر منه. ويؤكد هذا الاستنتاج صيغة الجمع "كل في فلك يسبحون" التي جاءت في الآيتين، لأنه لو كان المقصود بالسبح الشمس والقمر فحسب، لجاء التعبير بالثنائية و"كلاهما يسبحان".

٥- التأكيد على الرقة الشديدة لطبقة النهار في الغلاف الغازي لنصف الأرض المواجه للشمس: وهي حقيقة لم يدركها الإنسان إلا بعد زيادة الفضاء، في منتصف الخمسينات وأوائل الستينات من القرن العشرين. وقد سبق القرآن الكريم هذا الكشف العلمي بأربعة عشر قرناً وذلك في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَأَيُّ لَيْلٍ نَسْلُخُ مِنْهُ النَّهَارَ إِذَا هُمْ مُظْلَمُونَ﴾ (يس: ٣٧).

وهذه الآية الكريمة تؤكد أن الأصل في الكون الظلام، وأن طبقة النهار في الغلاف الغازي المحيط بنصف الأرض المواجه للشمس، والتي تتحرك باستمرار لتحل محل ظلام الليل بإشراق الفجر، هي طبقة بالغة الرقة لا يكاد سمكها أن يتعدى ٢٠٠ كم فوق مستوى سطح البحر. وإذا نسبنا هذا السمك إلى المسافة بين الأرض والشمس، وهي مقدرة بحوالي المائة وخمسين مليون كم، كانت النسبة واحداً إلى سبعمائة وخمسين ألفاً تقريباً. وإذا نسبنا إلى نصف قطر الجزء المدرك من الكون، والمقدر بأكثر من اثني عشر بليون (ألف مليون) سنة ضوئية اختفت هذه النسبة تماماً أو كادت. ومن هنا تتضح ضآلة سمك الطبقة التي يعمها نور النهار، كما يتضح عدم استقرارها لانتقالها باستمرار من نقطة إلى أخرى على سطح الأرض مع دورانها حول محورها أمام الشمس؛ ويتضح كذلك أن تلك الطبقة الرقيقة من نور النهار تحجب عنا ظلام الكون الخارجي، لأن الذين تعدوا طبقة النهار

من رواد الفضاء رأوا الشمس في منتصف النهار قرصاً أزرق في صفحة سوداء. وهذه المعلومات التي اكتشفت منذ أقل من نصف قرن تتضح روعة تشبيه القرآن الكريم انسلاخ نور النهار عن ظلمة كل من الليل والكون بسلخ جلد الذبيحة الرقيق عن كامل بدنها. وهذا يؤكد أن الظلمة هي الأصل في هذا الكون، وأن النهار ليس إلا ظاهرة نورانية عارضة رقيقة جداً، لا تظهر إلا في الطبقات الدنيا من الغلاف الغازي في نصفه المواجه للشمس؛ وبواسطة دوران الأرض حول محورها أمام ذلك النجم ينسلخ النهار تدريجياً أمام ظلمة ليل الأرض والتي تلتقي بظلمة السماء.

٦- التأكيد على دقة الحساب الزمني بواسطة كل من الليل والنهار والشمس والقمر: من المعروف أن السنة الهجرية هي سنة شمسية/قمرية، لأن هذه السنة تحددها دورة الأرض حول الشمس دورة كاملة تتمها في ٣٦٥,٢٥ يوماً تقريباً، وأن هذه السنة تقسم إلى اثني عشر شهراً بواسطة دوران القمر حول الأرض؛ كما يقسم الشهر إلى أسابيع وأيام وليال بنفس الوساطة. وقد تقسم الشهور بواسطة البروج التي تمر بها الأرض في أثناء جريها في مدارها حول الشمس، كما تدرك الأيام بتبادل كل من الليل والنهار، ويقسم النهار إلى وحدات أصغر بواسطة المزولة الشمسية؛ ومن هنا كان القسم القرآني بالليل والنهار والشمس والقمر في خمس آيات (الأنعام: ٩٦، إبراهيم: ٣٣، النحل: ١٢، الأنبياء: ٣٣، فصلت: ٣٧).

٧- الإشارة إلى أن ليل الأرض كان في بدء الخلق ينار بعدد من الظواهر الكونية: وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ (الإسراء: ١٢).

ويستشف من هذه الآية ظاهرة الشفق القطبي وأطرافه والتي تعرف أيضاً باسم ظاهرة الأنوار القطبية أو باسم ظاهرة فجر الليل القطبي؛ وهي ظاهرة نورانية ترى بالليل في سماء المناطق القطبية وحول القطبية، وتتكون نتيجة لارتطام الأشعة الكونية الأولية التي تملأ فسحة الجزء المدرك من الكون على هيئة الجسيمات الأولية للمادة بالغلاف الغازي للأرض، مما يؤدي إلى تأينه وإصدار أشعة كونية ثانوية. ونتيجة لذلك تصادم الأشعة بشحناتها الكهربائية المختلفة مع كل من أحزمة الإشعاع ونطاق التآين في الغلاف الغازي للأرض وتفرغ شحناتها فتوهجها. والجسيمات الأولية للمادة متناهية في الدقة، وتحمل شحنات كهربائية عالية، وتتحرك بسرعات تقترب من سرعة الضوء، ولم

تكتشف إلا في سنة ١٩٣٦. والأشعة الكونية تتحرك بمحاذاة خطوط المجال المغناطيسي للأرض والتي تنحني لتصب في قطبي الأرض المغناطيسيين فتؤدي إلى تأين الغلاف الغازي للأرض، ومن ثم إلى توهجه.

ومن الثابت علمياً أن نطاق الحماية المتعددة في الغلاف الغازي للأرض من مثل نطاق الأوزون، ونطاق التآين، وأحزمة الإشعاع، والنطاق المغناطيسي للأرض لم تكن موجودة في بدء خلق الأرض. ولذلك فقد كانت الأشعة الكونية تصل إلى المستويات الدنيا من الغلاف الغازي للأرض فتؤدي إلى توهجه ليلاً حول كافة الأرض، وبعد تكون نطاق الحماية المختلفة أخذت هذه الظاهرة في التضاؤل التدريجي حتى اختفت، فيما عدا مناطق محدودة حول القطبين، تبقى شاهدة على أن ليل الأرض في المراحل الأولى من خلقها كان يضاء بوهج لا يقل في شدته عن نور الفجر الصادق.

فسبحان الذي أنزل من قبل أربعة عشر قرناً قوله الحق على لسان نبيه الخاتم: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ (الإسراء: ١٢).

هذه الشواهد العلمية المستقاة من تبادل الليل والنهار بدءاً بتأكيد كروية الأرض، ثم دوراتها حول محورها، وتباطؤ هذا الدوران مع الزمن، وجريها في مدارها المحدد حول الشمس، والرقّة الشديدة لطبقة النهار، والدقة الفائقة لحساب الزمن بواسطة تتابع كل من الليل والنهار والشمس والقمر، وأن ليل الأرض كان يضاء في بدء الخلق بوهج لا يقل في شدته عن نور الفجر الصادق، وأن من بقايا هذا الوهج القديم ظاهرة الفجر القطبي...

هذه الشواهد لم يصل الإنسان إلى إدراكها إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين. وورودها في كتاب الله الذي أنزل على نبي أمي ﷺ في أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، ومن قبل أربعة عشر قرناً لما يقطع بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخاتم والخالد، وأن النبي والرسول الخاتم الذي تلقاه كان موصولاً بالوحي، ومعلماً من قبل خالق السماوات والأرض، ولذلك وصفه ربه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۖ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ (النجم: ٣-٥). ■

أسناد علوم الأرض ورئيس لجنة الإعجاز العلمي بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية / مصر.

لزومية

أ.د. حسن الأمراي*

أخْتَاهُ! إِنَّ الْعِيشَ عِشُّ الْآخِرَةِ
فَهِيَ الْمَعَانِي وَالْمَعَانِي الْزَاخِرَةُ

فَتَأْتِي بَرِيَاضُ ذِكْرِ مَوْنِقٍ
وَتَأْتِي شَعْرًا.. لَأَلِيٍّ فَاخِرَةٍ

شَعْرًا إِلَهِيًّا يُوَانِسُنِي إِذَا
مَا صُرْتُ - يَا أَخِي - عِظَامًا نَاخِرَةٍ

مَا هَذِهِ الدُّنْيَا وَإِنْ عَرَضَتْ لَنَا
صُورَ الْجَمَالِ سِوَى فُصُولِ سَاخِرَةٍ

بِحُرٍّ خَضَمَ مَوْجُهُ مَتَلَاظِمٌ
وَالنَّاسُ فِيهِ أُمْنِيَّاتٌ مَاخِرَةٌ

وَالْحَبِّ خَيْرُ الزَّادِ لَوْ عَلِمَ الْفَقِي
وَفَعَالُهُ الْمَوْفُورُ نَعَمُ الْبَاخِرَةِ

مَاذَا عَلَيْنَا لَوْ رَكَبْنَا عُرْضَهُ
شَوْقًا، وَوَجْهَتْنَا نَعِيمُ الْآخِرَةِ؟!

(*) رئيس تحرير مجلة المشكاة / المغرب



مدارس ودروس

من "دايتون" الأمريكية إلى "أبنت" التركية

أ.د. إبراهيم البيومي غانم

ق

قالوا قديماً إن في السفر فوائد كثيرة تظهر في جوانب مختلفة من حياة المسافر، منها زيادة رزقه، واتساع علمه، وتقوية صحة جسمه، وسكينة نفسه، ونضج خبرته، وكثرة معارفه وأصدقائه، وتحديد الحنين إلى أهله ووطنه والديار التي كان فيها مسقط رأسه. وقد جمع الشاعر بعض تلك الفوائد في قوله:

تغرَّبَ عن الأوطان في طلب العلا
وسافر ففي الأسفار خمس فوائد
تفريج هم و اكتساب معيشة
وعلم وآداب وصحبة ماجد.

فوائد الأسفار

ولكن يبدو أن فوائد السفر الحديث في أيامنا تختلف في عددها وفي نوعها عن فوائد السفر القدم الذي عرفه البشر في الأيام الخالية. فهي أكثر منها عدداً وأعمق منها أثراً. وهذا هو ما تبين لي بعد سفرتين متتابعتين: الأولى كانت من يوم ٢٢ يونيو

حتى ٣ يوليو ٢٠٠٦ إلى مدينة "دايتون" في ولاية "أوهايو" الأمريكية للمشاركة في الملتقى السنوي لـ "كاترنج فاؤندينشن" (Kettering Foundation) حول "الديمقراطية الندولية"، وبرامج علمية أخرى مصاحبة لهذا الموضوع، ومنها لقاء المجموعة العربية لبحوث وقياسات الديمقراطية. أما الرحلة الثانية فقد كانت من يوم ٩ حتى ١٧ يوليو ٢٠٠٦ إلى إسطنبول، ومنها إلى منتجع "أَبْنَت" (Abant) بمدينة "بُولُو" (Bolu) التركية -على مسافة ١٥٠ كلم شمال العاصمة أنقرة- وذلك للمشاركة في منتدى "أَبْنَت" حول "سياسات العولمة ومستقبل الشرق الأوسط".

أما المدة التي استغرقتها في الرحلتين فكانت ثلاثة أسابيع، قضيتها مناصفة بين أمريكا وتركيا. وكان من تقدير الله سبحانه -وبدون سابق ترتيب مني- أن أشارك في ندوات علمية تكاد تكون متماثلة في الرحلتين، وأن أزور بعض المؤسسات والهيئات لاجتماعية والثقافية التي تنتمي إلى المجتمع المدني في الحالتين؛ إلى جانب التجوال الحر ورؤية بعض المعالم الأثرية والمزارات



عليه في عدد معقول من السنين عقد أو عقدين مثلاً، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه، وما رأيته زاد همومي ولم يفرجها.

مشاهد البهجة في مطار إسطنبول

وإذا كانت أول فوائد السفر القديم قد ضاعت مني في رحلتي إلى أمريكا في الغرب، فقد أدركتها في سفري التالي إلى تركيا في الشرق. كان المشهد الأول مبهجاً في مطار إسطنبول: مطار حديث على آخر صيحة وقد هبطت الطائرة في المطار الجديد، وهو كبير الحجم، فائق النظافة، دقيق التنظيم والانضباط وسهولة الحركة، وإجراءات الأمن والسلامة والتفتيش تتم ببسر وسهولة، ويخضع لها الجميع دون أدنى تمييز بين المسافرين، لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لتركي على أوروبي أو أمريكي. ولا تستغرق عملية تدقيق الجوازات وتأشيرات الدخول سوى بضع دقائق. وما كدنا نخرج من بوابة الخروج حتى وجدنا في استقبالنا ثلة من الفتية ذوي الوجوه البشوشة، والأيدي الممدودة لمساعدتنا في حمل الحقائب، مع كلمات الترحيب بلغة عربية رشيقة تحيها وتتمتع بسماحها من أفواه شباب أترك تفانوا في خدمتنا من أول يوم حتى آخر لحظة. قبل مغادرتنا إسطنبول حتى كدنا نبكي من فرط كرمهم وتواضعهم.

كان هذا المشهد الأول في تركيا كفيلاً بأن يبدد بعض الهموم المخترنة من رحلتي إلى "دايتون"، فها هم أولاء أناس من بلد مسلم وشرق أوسطي عريق مثل تركيا يقدمون نموذجاً لا يقل في روعته عما شاهدناه في أمريكا من النظام والنظافة والانضباط وسهولة الحركة وكفاءة العمل في مرفق حيوي وواجهة من واجهات الدولة. ويوماً بعد يوم في تركيا من إسطنبول إلى "بورصة" إلى "بولو" ومنتجع "أنت"، كانت همومي تنفرج شيئاً فشيئاً؛ وذلك بعد أن أخذنا أصحاب الدعوة من تلامذة الأستاذ "محمد فتح الله كولن" في جولة سياحية وعلمية، رأينا فيها عدداً من المشروعات الحديثة فائقة الروعة في شكلها ومضمونها، أو في مبانيها ومعانيها: مدرسة وجامعة ومستشفى وصحيفة وتلفزيون؛ كما رأينا فيها سلسلة من الآثار التاريخية النادرة وفي مقدماتها المساجد والقصور التي تشتهر بها تركيا عامة، وإسطنبول خاصة؛ والمتاحف وأهمها متحف "طوب قاي" الذي يضم آثار العهد العثماني.

شخصية الأستاذ "فتح الله كولن"

والأستاذ "فتح الله كولن" هو من الشخصيات ذات الأثر الواسع داخل تركيا وخارجها، ويحتاج إلى أكثر من مقالة لتعريف القارئ

السياحية في بعض المدن الأمريكية هناك في أقصى غرب العالم، وفي بعض المدن التركية هنا في قلب الشرق، وتحديدًا في إسطنبول التي كانت يوماً عاصمة الشرق كله.

هموم الأسفار

بالنسبة لفائدة "تفريج الهم"، فإن الذي حدث معي هو العكس في سفرتي إلى الولايات المتحدة الأمريكية؛ إذ إن همومي زادت ولم تنفرج! وأول ما وجدته هو أنني أوجست في نفسي خيفة عندما وطئت قدمي أرض مطار "سينسيناتي" في وسط غرب الولايات المتحدة الأمريكية. كانت هذه هي أول رحلة لي إلى أمريكا، وأنا طبعاً قادم من بلد شرق أوسطي قديم، إلى بلد غربي متطور علمياً وتكنولوجياً، وشعرت ساعتها بأني في حيرة من أمري؛ فمطار سينسيناتي هائل الحجم، هائل التنظيم، هائل النظافة، يعجّ بالمغادرين والبالقادمين، وكلها أمور أثارت في نفسي خواطر مختلطة بين الإعجاب والضييق، وكنت كلما نظرت إلى النظافة والتنظيم والانضباط والسهولة في الحركة داخل المطار في سينسيناتي، وقارنت ذلك كله بما رأيته وعرفته ويعرفه كثيرون عن مطارات شرق أوسطية - ومنها بعض مطارات بلادتي - زاد اختلاط الإعجاب بالضييق في نفسي، وضاق صدري ولم ينطلق لساني أكثر من مرة، فلم أردّ على تعليقات أحد رفقائي في الرحلة كان يحاول لفت نظري إلى بعض تلك المعاني التي جالت في خاطري.

ثم جاء مشهد إجراءات الأمن والسلامة التي يخضع لها الجميع، مع قليل من التمييز السليبي ضد ذوي الملامح الشرق أوسطية أمثالنا وغير الأمريكيين عموماً، ولكن التعامل مع الجميع كان مهذباً ولم يخل من بعض الدعابات.

لم تفارقني همومي التي حملتها من بلدي، بل إن تلك الهموم كانت تزيد ولا تنقص ناهيك عن أن تنفرج كلما مر يوم عليّ في "دايتون" أو في ضواحيها. وهمومي التي أتحدث عنها هي هموم التخلف الذي نعيشه في بلادنا، وهموم حالة الفوضى غير الخلاقة التي تسحق آدمية أغلبية أبناء شعوبنا العربية والإسلامية ويصادفونها في معظم زوايا حياتهم. وجدت أن ثمة فجوة هائلة بيننا وبينهم فجوة أكبر بكثير مما كنت أتصور وأعرف من خلال قراءاتي ومعرفتي عن بُعد بالمجتمع الأمريكي. كنت أمني نفسي في أول مرة أسافر فيها إلى الولايات المتحدة بأن تكون الفجوة بيننا وبينهم أقل عمقاً وأضيق نطاقاً، وأن يكون عبورها مقلوراً

العربي به وبأفكاره ومنهجه في الإصلاح. وهو ممن استوعب منهج بديع الزمان النورسي في فهم الإسلام، وقد استطاع أن يقدم رؤية خاصة به في الإصلاح والدعوة، وله عديد من المقالات والمؤلفات القيمة، كما أن له تياراً واسعاً المحبين له والمتأثرين برؤيته الحضارية، منهم نسبة مؤثرة من رجال الأعمال والأثرياء الذين يتولون تمويل المشروعات الخيرية التي أكد الأستاذ على أهميتها وحث على تفعيلها طوال حياته، وما أكثرها، وذلك من خلال نظام الوقف المنتشر على نطاق واسع في تركيا، حتى إن لكل مرفق أو خدمة "وقفاً" يوفر المال اللازم لتمويل المشروعات والبرامج التي يقدمها، ويعني تلك المؤسسات والمشروعات عن ذل الحاجة إلى التمويل الأجنبي الذي ابتليت به كثير من بلداننا العربية.

نعود إلى بقية فوائد السفر القديم وهي "اكتساب العلم والآداب وصحبة الماحد"، وقد حصلت من ذلك قدر استطاعتي. وقد حفرتني الرحلتان إلى أمريكا وإلى تركيا إلى ضرورة إعادة النظر فيما قاله السابقون عن فوائد السفر القديم، واكتشفت فوائد جديدة تزيد كثيراً على ما ذكره قدماء المسافرين. ومما اكتشفته: اكتساب الخبرة، ونقد الذات، وإدراك القواسم المشتركة بين بني آدم أينما كانوا وحيثما حلوا، وتبادل الدروس الإنسانية، ومقارنة المدارس التعليمية والتربوية بين الشرق والغرب، وغير ذلك مما يطول شرحه ويصعب حصره هنا. ووجدت أن لكل فائدة مدرسة تنتجها، ودروساً تعبّر عنها. ومن الموافقات الحسنة وجود أوجه شبه مثيرة بين مدارس ودروس السفر إلى دايتون في أمريكا، ومدارس ودروس السفر إلى "أبنت" في تركيا، وهذه هي خلاصتها:

مدرسة في التربية والتعليم، ودرس في العطاء

على الجانب الغربي وفي "دايتون" كانت المدرسة -بالمعنى الواسع لكلمة مدرسة- هي مؤسسة "كاترنج" التي ترعى عديداً من البرامج التعليمية والتدريبية والبحثية، وتقوم بتمويلها من عوائد وقفيتها الخاصة، وتركز منذ عقود على قضية أساسية هي ما تطلق عليه "الديمقراطية التداولية"، أو "الديمقراطية التشاورية". أما درس العطاء فقد لمسته من أغلب العاملين في "كاترنج" بدءاً بريثس المؤسسة ديفيد ماثيوس، مروراً بمساعديه بمختلف مستوياتهم. حقيقة وجدتهم يعملون بروح الفريق، وبدافع قوي لا يمكن أن ينبع إلا من الإيمان بالرسالة التي تقوم بها المؤسسة في خدمة العلم والمعرفة بشكل عام، وفي تقديم المجتمع الأمريكي بشكل خاص. أما على الجانب الشرقي وفي "إسطنبول"، فقد كانت

المدرسة -بالمعنى الواسع أيضاً- عبارة عن سلسلة من المشروعات والمؤسسات التعليمية والبحثية والثقافية، تعتمد في تمويلها على ريع وقفيات -أيضاً كما في حالة كاترنج الأمريكية- خصصها رجال أعمال ومحسنون أتراك، أغلبهم من تلامذة الأستاذ "فتح الله كولن". هي مدرسة ذات طابع مختلف عن مدرسة "مؤسسة كاترنج"، ولكنها تقوم بمهمات ماثلة في نشر العلم وإنتاج الثقافة وبناء مجتمع المعرفة، وتسعى للإسهام بجدية بالغة في تقدم المجتمع التركي خاصة، وفي إسعاد الإنسانية عامة. أما درس العطاء فقد لمسته، كما لمسه جميع رفقاءني في الرحلة، في الأداء رفيع المستوى، بالغ الإتقان لكل من قابلناهم في تلك المؤسسات، وليس ثمة مصدر يدفعهم لذلك سوى الإيمان العميق بالرسالة التي يؤدونها. وكان لافتاً للنظر أنك لا تستطيع أن تحدد أيهما أكثر روعة: العنصر البشري العامل في تلك المؤسسات من الشباب والشابات، أم تلك المؤسسات نفسها. وذات مرة قلت لأحد رفقاء السفر: ما أروع هذا المبنى، فرد قائلاً: الأروع هم هؤلاء البشر المتفانون في عملهم. قلت: لن نختلف كثيراً؛ فمبنى رائع كهذا لا بد أن يشيّد ويديره أناس رائعون كهؤلاء.

أحد المحسنين الذين قابلناهم هو "الحاج علي كروانجي"، رجل أعمال عصامي، لفت نظره أن الأستاذ "فتح الله كولن" يحرص بإصرار على أن لا تمس يده أموال المتبرعين لأعمال الخير التي يدعوهم لها، فقرر أن يقف ثروته وحياته للأنظمة الإنسانية التي يشجع عليها؛ فبنى سلسلة بديعة من المدارس ومسجداً أيقظاً إذا دخلته تحب أن تبقى فيه ولا تخرج منه، من فرط الراحة التي تشعر بها وأنت داخله. وأمثال الحاج "علي كروانجي" كثيرون في تركيا، وبفضل عطائهم نشأت مؤسسات ومشروعات حضارية بكل ما تحمله كلمة "حضارة" من معنى.

مدرسة في الأخلاق ودرس في التسامح الإنساني

على الجانب الغربي وفي "إنديانا" هذه المرة كانت مدرسة الأخلاق -بالمعنى الواسع لكلمة مدرسة كذلك- هي جامعة "نوتردام" الكاثوليكية. والحقيقة أنني لم أتوقع وجود مثل هذه النزعة الأخلاقية من حيث الأصل في بلد مثل أمريكا. وجامعة نوتردام هي من الجامعات المحافظة بكل المعاني التي تشير إليها كلمة "المحافظة". وقد أتيت لي أن أطلع عن كتب على أحد المعاهد التابعة لها، وهو "معهد كروك"، وتحدثت مع مديره "سكوت أبلبي"، ومع عدد من الباحثين والموظفين، وكان أكثر ما شدّ



تميز. وفي كل مؤسسة من تلك المؤسسات لمسنا درس التسامح الإنساني في عمقه الإسلامي. ومن أفضل التعبيرات عن هذا الدرس ما قاله بعفوية أحد المسؤولين عن تلك المؤسسات وهو: "إذا تحدث العالم عن الإنسان، فنحن المسلمين أول من يجب البشر، ونحب الكون؛ لأن الله خلق هذا وذاك، وعلينا أن نتحاور مع الآخر بهذه الروح، حتى وإن كان يفكر بطريقة مختلفة عنا"، وإن الغاية من هذه المؤسسات هي تنشئة أجيال صالحة تعمل لخير الإنسانية". أنا قرأت كل تلك المشروعات الراقية باعتبارها تطبيقاً لمدرسة الأخلاق الإسلامية العملية، وباعتبارها درساً في التسامح الإسلامي الإنساني، وهذا هو لب الرسالة الإسلامية؛ إذ ليست تعاليم الإسلام بمجرد كلام نظري، بل هي قول وعمل، وإيمان وتطبيق، وهذا ما رأيناه بأعيننا هناك في تركيا، ونود أن نرى مثله في بقية البلدان العربية والإسلامية.

مدرسة في المجتمع المدني ودرس في المشاركة

هناك في "دايتون" اطلعنا على مدرسة متكاملة في "المجتمع المدني"، أو ما يمكن أن نسميه "السياسة المدنية"، بالمعنى الذي قصده الفارابي وابن خلدون وغيرهما من أعلام الفكر الإسلامي، وهذا المعنى يركز على التدبر في كيفية تسير شؤون الناس اليومية بأفضل طريقة تكفل تحقيق مصالحهم المادية والمعنوية معاً. هذا هو جوهر معنى السياسة المدنية، أو المجتمع المدني كما قدمه علماءنا السابقون، ويطبقه الأمريكيون فيما بينهم وعلى مستوى قضاياهم الداخلية على الأقل. وهذا هو ما رأيته وأدركته من خلال مشاركتي في الملتقى السنوي لمؤسسة كاترنج حول "الديمقراطية التداولية". وسواء اقتبسوا هذا المعنى المدني للسياسة من علمائنا أم توصلوا إليه باجتهادهم فالنتيجة واحدة، وهي أنهم جادون في البحث عن كيفية تفعيله في واقعهم الاجتماعي، وكيفية إعادة المواطنين إلى المجال العام والمشاركة في قضايا هذا المجال والابتعاد عن العزلة.

وقد دأبت مؤسسة كاترنج منذ خمسة وعشرين عاماً على تنظيم حلقات نقاش حول قضايا الديمقراطية، واستطاعت أن تقدم للمجتمع الأمريكي مجموعة من الإسهامات المهمة النظرية والتطبيقية، التي استهدفت حل المشكلات التي تعترض المواطنين في علاقاتهم بالسلطة والسياسة والشؤون العامة من جهة، وبناء ثقافة السياسة المدنية وتفعيلها على أرض الواقع من ناحية أخرى، وهذا هو جوهر "درس المشاركة" الذي جعلته مؤسسة كاترنج نصب

انتباهي هو المناخ الأخلاقي الذي يعمل فيه الجميع، استناداً إلى قاعدة قوية من التعاليم الدينية الكاثوليكية، ربما كان أفضل من يجسدها هو مدير معهد كروك الدكتور القس سكوت أبلبي. قال لي: "لو خُيرت بين أن أشغل أعلى منصب في الدنيا، وبين البقاء في هذه الجامعة لاخترت البقاء في جامعة نوتردام". أما الدرس الأكثر تأثيراً فيمن يدخل هذه المدرسة فهو درس التسامح الإنساني، الذي عبرت عنه ليس فقط كلمات من قابلناهم في المعهد، ومشاعرهم الودودة تجاهنا، رغم علمهم أننا شرق أوسطيون، وإنما أيضاً وجود أناس مختلفي المواقف من الدين ذاته، ومن الكاثوليكية نفسها التي هي جزء من اسم جامعة نوتردام. فهناك مسلمون، ويهود، ومسيحيون، ودهريون، وكان لسان الحال يردد قول الله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون: ٦)، وكذلك عبرت عن هذه النزعة الإنسانية المشروعات والبرامج البحثية والتعليمية التي تستهدف في أغلبها دعم قيم الحوار والسلام والتسامح بين مختلف الشعوب والأمم.

أما على الجانب الشرقي، وفي مختلف المشروعات التي زرناها في إسطنبول وفي مدينة "بورصة"، تجلّت مدرسة الأخلاق بأبهي ما يكون التجلي؛ وإذا قارناها بمدرسة "نوتردام" الأمريكية التي أوأنا إليها، سنجد أن مدرستنا في تركيا أعمق جذوراً، وأكثر غصوناً، وأصدق قبلاً، وأتقن فعلاً؛ فهذه جامعة، وهذا مستشفى، وتلك صحيفة، وهذه مدرسة ابتدائية، وهذا تلفزيون... جميعها في إسطنبول، وبعضها له أفرع خارج إسطنبول، وكلها مؤسسة على أحدث تكنولوجيا العصر؛ حتى إنها تبهر الزائر وتجعله لا يصدق ما تراه عيناه، وربما يشعر أنه في حلم وليس في "علم" يراه رأي العين، فلا يملك إلا أن يقول "ما شاء الله لا قوة إلا بالله"، ولا يملك إلا أن يدعو للقائمين على تلك المؤسسات بالسداد والتوفيق، ولا يملك إلا أن يتحسر على أحوال بلاده المتردية - كما هو حالنا - في أغلب المؤسسات والمرافق الحكومية وغير الحكومية. والأمر المهم في كل ذلك هو أن تلك المشروعات على تنوعها نبعت من أصل واحد هو الروح الإسلامية، والأخلاقية الإسلامية، التي تحض في أحد مبادئها على حتمية أن يُتقن الإنسان عمله، وذلك انطلاقاً من قول الرسول الكريم ﷺ: "إن الله يحب أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه"^(١)، وقد شهدنا بما علمنا ورأينا أن هؤلاء المسلمين الأتراك قد اتقنوا ما عملوه من مشروعات عالية الجودة، فائقة التقدم، ووفرة النفع للمجتمع والدولة، للمسلمين ولغير المسلمين، دون تفرقة، أو

عينها منذ عدة عقود. ويتضح من مراجعة البرامج والمشروعات البحثية التي ترعاها كاترنج أنها تشعر بأن الديمقراطية الأمريكية في خطر نتيجة ترايد حالة العزلة والاعترا ب بين المواطنين، وعدم الاهتمام بالشؤون العامة، ومن ثم اجتهدت المؤسسة في البحث عن الطرق الكفيلة باستدعاء دور الشعب من جديد، وإعادة اكتشاف المواطنة، وبالتالي ترميم الثقافة المدنية التي تمهد لإشراك الشعب في الحياة السياسية من جديد.

وفي "أبنت" التركية اطلعنا على برامج ومشروعات مدرسة أخرى في "المجتمع المدني" بالمعنى السابق شرحه، وشاركنا في لقاءها الدوري للحوار والتداول في الشؤون العامة التي هم تركيا وهم غيرها من بلدان منطقة الشرق الأوسط. وقصة "منتدى أبنت" كمؤسسة من مؤسسات المجتمع المدني بدأت قبل نحو عشر سنوات بهدف لَمِّ شمل المثقفين والأكاديميين الأتراك من كل الاتجاهات السياسية والفكرية والمذهبية، والانتقال من حالة الاحترا ب والصراع إلى حالة السلم الاجتماعي والتعاون، وبهدف تقوية الثقافة المدنية السلمية داخل المجتمع التركي، ثم اتسعت اهتمامات المنتدى بعد ذلك إلى خارج تركيا من أجل تحقيق الأهداف ذاتها ولكن على مستوى عالمي. ويعتبر "منتدى أبنت" أحد المؤسسات التابعة لـ "وقف الصحفيين والكتاب" الذي كان قد تأسس بمبادرة من الأستاذ "فتح الله كولن" سنة ١٩٩٤.

سمعنا من رئيس وقف الصحفيين والكتاب قصة نشأة الوقف، وكيف تطورت أهدافه ونمت مشروعاته، وكيف انبثقت منه فكرة منتدى "أبنت" للحوار، وكيف أضحت المنتدى مستقلاً في إدارته وفي نشاطاته عن وقف الصحفيين والكتاب. وتبين أن الفكرة الأساسية الموجهة لهذا المنتدى هي فكرة "الحوار المدني"، وهي من أفكار الأستاذ "فتح الله كولن" من أجل تكوين قاعدة صلبة للمشاركة في الشؤون العامة، والتوصل إلى أفضل الحلول للمشكلات التي تواجه المجتمع التركي، ثم اتسعت آمال أصحاب المنتدى إلى النطاق العالمي، وأضحت المنتدى "نموذجاً" يبرهن على إمكانية التعايش بين المختلفين، والتعاون فيما هو متفق عليه، واحترام وجهات نظر المخالفين، مع إعمال التفكير النقدي فيها لتوسيع القواسم المشتركة وتضييق مواطن الاختلاف قدر المستطاع.

درس "المشاركة" في الشأن العام انطلاقاً من مفهوم المجتمع المدني والسياسة المدنية، عبّر عنه بعض المشاركين في منتدى "أبنت"، ولكن بطريقة مختلفة عن تلك التي وجدناها عند مؤسسة كاترنج في دايتون الأمريكية؛ هناك في دايتون كان همهم الأساسي هو كيف

يمكن تقوية الثقافة المدنية الكفيلة باستعادة المواطنين إلى السياسة وشؤون المجال العام، وكيف يمكن ترميم الديمقراطية الأمريكية بعد أن أصابها الوهن وتهدمت بعض دعائمها. أما في "أبنت" فقد كان الهم الأساسي هو كيف يمكن بناء المجال العام، وكيف يمكن هئية البنية الأساسية للممارسة الديمقراطية، أو الشورية. كان ذلك واضحاً في الملتقيات الماضية للمنتدى، وحتى في الملتقي الأخير في يوليو الماضي -رغم أن موضوعه كان عن سياسات العولمة وانعكاساتها على مستقبل الشرق الأوسط- وقد عبر عن هذا الدرس بوضوح وعمق في آن واحد البروفسور "كمال كاريات" -وهو أحد أشهر أساتذة التاريخ في تركيا- وذلك عندما شدد في كلمته بالمنتدى على أن لب المشاكل التي تعاني منها بلدان الشرق هي "أن المجال العام في هذه البلدان لم يتطور، ولذلك اتسعت الفجوة بين الشعوب والحكام، وما لم يتطور المجال العام، وينخرط فيه أكبر عدد ممكن من المواطنين، فسوف يظل الاستقرار بعيد المنال، وسوف يظل التحديث ضرباً من الخيال". هكذا تحدث كمال كاريات، والحق معه فيما قال. هناك مشوار طويل أمام مجتمعاتنا في الشرق لتعلم درس المشاركة وتحويله إلى ممارسة مؤسسية، وهذا أحد أهم الدروس التي تجتهد فيها "مدرسة المجتمع المدني في تركيا"، ويسهم فيها منتدى أبنت بسهم وافر.

بعد الرحلتين؛ إلى الولايات المتحدة الأمريكية في الغرب، وإلى تركيا في قلب الشرق، وبعد أن تبين ما هنالك من هوم مشتركة، وجهود متشابهة تسعى للتغلب على المشكلات التي تعاني منها الإنسانية المعاصرة، قلت: لا بد من إعادة النظر في قول كيلنج -شاعر الإمبراطورية البريطانية العجوز- "الشرق شرق، والغرب غرب، وهيهات أن يلتقي"، فهما قد يلتقيان، وقد بدءا يلتقيان في بعض الحالات، حتى وإن حاول محترفو السياسة الإبقاء على الفرة بين الشعوب والأمم. فمن مصلحة البشرية أن يلتقي بنو آدم جميعاً؛ كانوا في الشرق أم في الغرب، في الشمال أم في الجنوب. وقبل أكثر من خمسة عشر قرناً قرر الإسلام العظيم المساواة بين البشر جميعاً، وأكد أن كلنا لآدم وآدم من تراب، وأنه لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح. ■

(٥) أستاذ العلوم السياسية - جامعة القاهرة / مصر.

(٦) مجمع الزوائد، ٩٨/٤.



منهج التروبي



في حياة الأستاذ سعيد النورسي

أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي*

ق

الفقري في منهاج السلوك إلى مرضاة الله. ثم إنه خلّف بعد ذلك الرعيل الأول خلف، أفردوا لهذا المنهج السلوكي اسماً جديداً لا عهد لمن قبلهم به، وما لبثوا أن أولوه أهمية بالغة من حيث إنّ هذا المنهج التربوي هو المدخل الذي لا بدّ منه لسائر أنواع الصلاح الفردي والاجتماعي. غير أن الاهتمام بالاسم الجديد تغلب شيئاً فشيئاً على الاهتمام بالمسمى القديم، فتولد من ذلك تيار من الانجذاب إلى

قالوا: "كان التصوف في صدر الإسلام مسمّى لا اسم له، ثم أصبح اليوم اسماً لا مسمّى له". وأقول هي كلمة صحيحة ودقيقة؛ فإن المسلمين في صدر الإسلام كان همهم الأول تزكية النفس الأمانة بالسوء، والسموّ بها في مدارج التربية إلى مرتبة النفس الراضية والمطمئنة دون أن يبدعوا لذلك اسماً غير الاسم الذي سماه الله ﷻ به، وهو الجهاد التأسيسي الذي يبدأ بتزكية النفس وتربيتها، وهو العمود

كان- كما قلت لكم- لباب الإسلام ومكونه، وكانت علاقته بأحكامه السلوكية الظاهرة، كعلاقة الروح بالجسد.

سنوحت ربانية

ولقد كان من نتائج هذه العوامل سنوحت ربانية علوية، يفيض بها قلبه، تعلو به في سلم المقامات، وترقى به إلى أعلى تلك الدرجات. من هذه المقامات أن يصل السالك من جهوده وجهاده إلى نكران الذات والفناء في المنعم ﷻ والرقى إلى أعلى درجات الإحسان، وهو عدم شعور العبد بإحسانه، وذهوله عن أحواله ومقاماته.

وإليكم بيانه لهذه الرتبة التي لا يتذوقها ولا يرقى إليها إلا من أخذت بمجامع نفسه نشوة العبودية لله، وناله منها ما يشبه السكر، يقول: "قال لي أحد الأتقياء في قسطنطين شاكياً: لقد ترديت وتقهقرت عن حالي السابق.. إذ فقدت ما كنت عليه من أحوال وأذواق وأنوار. فقلت له: بل ترقيت، واستعليت على الأذواق والكشوف التي تلاطف النفس وتذيقها ثمراتها الأخروية في الدنيا، وتعطيها الشعور بالأنانية والغرور.. وقد طرت إلى مقام أعلى وأسمى، وذلك بنكران الذات وترك الأنانية والغرور، وبعدم التحري عن الأذواق الفانية.. نعم إن من الإحسان الإلهي للعبد أن يُنسِيه إحسانه بفنائه عن نفسه التي لا حول لها ولا قوة ولا وجود إلا بالمحسن الأوحد وهو الله سبحانه".^(١)

أليست هذه السنوحت من المسميات التي لم يكن لها في صدر الإسلام اسم مختص به؟ لقد كان لها حضور بارز في ذلك الصدر الأول، ولكن لم يعبر عنها إلا بما سماها الله تعالى به، وهو تركية النفس والصعود الدائم في درجات الإحسان.

ولقد كان من آثار هذه العوامل أيضاً تنامي مشاعر الخشية من الله بين جوانحه، وهيمنة الرقابة الإلهية على قلبه، وتعاطف الخوف في نفسه مما هو مقبل عليه بعد الموت. وكلها مسميات قدسية لهذا الذي يسمى اليوم تصوفاً، ولكن لم يكن لها وراء اسم العبودية الضاربة لله تعالى حينذاك أي اسم مصطنع آخر.

ولنتأمل ترجمة هذه الآثار لديه في هذا الدعاء الواجب الذي صاغه الأستاذ النورسي رحمه الله باللغة العربية، وكان يناجي به ربه ﷻ في أوقاته الخاصة. يقول رحمه الله:

"يا إلهي الرحيم يا إلهي الكريم! قد ضاع بسوء اختياري عمري وشبابي، وما بقي من ثرائهما في يدي إلا آثام مؤلمة مثله، وآلام مضرّة مضلّة، ووساوس مزعجة معجزة... وأنا بهذا الحمل الثقيل والقلب العليل والوجه الحجل، أدنو إلى باب قبوري.. بيت

كلمة التصوف. ولا ريب أن العامل الأول لهذا الانجذاب إنما كان اقتران الكلمة بأعمال التربية النفسية التي هي لباب السير على صراط الله ﷻ، ومن ثم فهي لباب الإسلام. ولعل رجال "الرسالة القشيرية" من أبرز من يمثلون هذا العهد.

ثم جاء على أعقابهم خلف آخر غدت كلمة التصوف عندهم أشبه بقبة ليس في داخلها مزار، ولقد امتدّ عهد هذا الخلف إلى عصرنا الذي نحن فيه. إنك تتأمل فتجد أن التعامل اليوم إنما هو مع بريق هذه الكلمة وما يشع منها -بحكم الاقتران الطويل- من مظاهر الصلاح والتقوى وأصول الإرشاد ومناهج التربية والسلوك إلى مرضاة الله. وعندما تبحث عما تحت هذه الكلمة من هذه المضامين لا تجد شيئاً. وهكذا فقد غدا التصوف اليوم -كما قالوا- اسماً لا مسمى له.

النورسي الاستثناء

غير أن من المعلوم أنه ما من قاعدة إلا ويعتريها شذوذ، وما من عموم إلا ويلحقه استثناء، فلا يزال في المتصوفة من هم على سنن الرعيل الأول. وإني لأجد أن سيرة الأستاذ المرشد سعيد النورسي، كانت مظهراً لهذا الاستثناء. كانت مظهراً لحال الرعيل الأول من المسلمين؛ إذ كان التصوف عندهم مسمى لا اسم له. ولا ريب أن في عالمنا العربي والإسلامي من يشركه في هذه الحال الاستثنائية. ولكنهم قلة لا يتجاوزون عدد الشذوذ من القاعدة والاستثناء من العموم.

في أكثر من موضع في (اللمعات) يصرح الأستاذ النورسي رحمه الله بأنه ليس صوفياً. ولكنه في كل ما يخاطب به تلامذته من فنون النصح والتربية والإرشاد، لا يخرج عن ذلك الباب الذي كان هو مسمى التصوف بل مسمى الإسلام في عصر السلف الصالح رضوان الله عليهم.

ولقد كان في مقدمة العوامل التي أكرمتها بالصفاء الروحي وأيدته بالإلهام الصائب والفتوحات الربانية تلك الساعات الطويلة التي كان يأخذ نفسه فيها بالأذكار المأثورة والأوراد التي تنسب إلى كبار الأولياء والمرشدين، كالأوراد القدسية للشاه نقشبند، وكالجوشن الكبير الذي كان يقرؤه ويوصي بقراءته؛ كما كان من أهم تلك العوامل خلواته الكثيرة والطويلة التي يمضيها في شواهد الجبال، وأحياناً على مقاعد في أعالي الأشجار، يحاسب فيها نفسه ويراقب فيها ربه، ويتأمل صفات الخالق في مرآة مخلوقاته الكونية. وهل كان ذلك كله إلا جزءاً من المسمى الذي لم يكن له في صدر الإسلام هذا الاسم الذي شاع له من بعد "التصوف". ولكنه



الوحدة والانفراد في طريق أيد الآباد، مفارقاً هذه الدار الفانية الهالكة باليقين، والآفة الراحلة، والغدرة المكاراة لا سيما لثلي ذوي النفوس الأماراة.

فيا ربي الرحيم ويا ربي الكريم! أراي عن قريب وقد لبست أكفاني وركبت تابوتي، وودعت أحبابي، وتوجهت إلى باب قبري. فأنادي وأنا على باب رحمتك: الأمان الأمان، يا حنان يا منان، نجني من حجل العصيان.

آه.. كفني على عنقي، وأنا قائم عند رأس قبري، أرفع رأسي إلى باب رحمتك، أنادي: الأمان الأمان، يا رحمن يا حنان، خلصني من ثقل حمل العصيان.

آه.. أنا ملتف بكفني وساكن في قبري، وقد تركني المشيعون، وأنا منتظر عفوك ورحمتك مشاهد بأن لا ملجأ ولا منجى إلا إليك، وأنادي: الأمان الأمان من ضيق المكان ومن وحشة العصيان، ومن قبح وجه الآثام، يا رحمن يا حنان ويا ديان، نجني من قيود الذنوب والعصيان.

إلهي! رحمتك ملجئي ووسيلتي، وإليك أرفع بئي وحزني وشكايتي.

يا خالقني الكريم، ويا ربي الرحيم، ويا سيدي ومولاي! مخلوقك ومصنوعك وعبدك العاصي العاجز الغافل الجاهل العليل الذليل المسيء المسن الشقي الآبق، قد عاد بعد أربعين عاماً إلى بابك، ملتجئاً إلى رحمتك، معترفاً بالذنوب والخطيئات، مبتلى بالأسقام والأوهام، متضرعاً إليك.. فإن تقبل وتغفر وترحم فأنت لذلك أهل وأنت أرحم الراحمين، وإلا فأني باب يُقصد غير بابك، وأنت الرب المقصود والحق المعبود، ولا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك.

آخر كلامي في الدنيا وأول كلامي في الآخرة وفي القبر: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم". (٢)

تأمل في هذه المناجاة التي لا تنبثق إلا من قلب ملئ بلوعة التعظيم والخشية والحب، فيأض بمشاعر العبودية الواجفة لله ﷻ. وتساءل معي: من أين تفجرت في قلبه هذه الأحاسيس العلوية المنصرفة بكليتها إلى الملأ الأعلى، والمعرضة عن ملكوت الأرض وزخارف الدنيا؟

أما إن هذه الأحاسيس لا تنبثق إلا من قلب من أخذ نفسه بأوراد الصباح والمساء، وغدّى فطرته بالإيمانية بالكثير من ذكر الله ومراقبته، وألزم نفسه بمنهاج دائم من التنقل في مدارج السالكين. وهل كان هذا إلا ديدن الرّغيل الأول من المسلمين،

وهل كان هذا في حياتهم إلا عملاً بدون عنوان مثير، ومسمى بدون اسم مصطنع؟!

وما أظن أن الأستاذ النورسي نفى اسم التصوف عن نفسه في أكثر من مناسبة وقعت عليها، إلا ليجعل من نفسه أمام الله تعالى فعلاً بتواضع وصمت، لا قولاً يتجمل أمام الناس بالعناوين والألقاب، ولعله أراد بذلك أن يشد نفسه إلى عهد السلف الصالح فيسير على هجهم وينهل من ودهم، ويحقق بذلك في نفسه الشطر الأول من مقولة: "كان التصوف في صدر الإسلام مسمى لا اسم له..".

موقف الأستاذ النورسي من البدع

في الناس من يظن أن من شأن الذين يكثرون الاهتمام بأسباب التزكية النفسية، وأحوال القلب ومقامات القرب من الله، أن يتساهلوا في البدع وأن يذهلوا عن خطورة الركون إليها وعن شدة تحذير رسول الله ﷺ منها.

غير أن الواقع يخالف لهذا الظن تماماً؛ فما تتبعنا حال من سلكوا -بصدق- مسالك التزكية النفسية واهتموا بمراقبة أحوال القلب وسبل التقرب إلى الله، إلا ورأيناهم من أكثر الناس ابتعاداً عن البدع ومن أشدهم تحذيراً منها. وارجع إن شئت إلى الرسالة الفقهية وتأمل في تراجم رجالها، تجد الجامع المشترك بينهم تلافيفهم على نبذ البدع ومحاربتها.

والأستاذ النورسي وإن كان متأخراً عن الرّغيل الأول وسلف هذه الأمة في الوجود، إلا أنه ليس متأخراً عنهم في المكانة والرتبة فيما نحسب، ولا تتألى على الله.

فقد أكثر الأستاذ في رسائله، وفي لمعه وفي إشعاعاته، من التحذير من ممارسة البدع باسم الدين، ومن التنبيه إلى ضرورة التمسك بأهداب السنة النبوية وعدم الخروج عليها. وهو إذ ينبّه إلى ذلك يلفت النظر إلى أن التمسك بالسنة النبوية والحرص الشديد عليها وعلى عدم الشرود عنها، هو دأب أولياء الله تعالى وشأن المرشدين الربانيين. يقول رحمه الله في اللمعة الحادية عشرة: "إن من يجعل اتباع السنة النبوية عادته، فقد حوّل عادته إلى عبادات، ويمكن أن يجعل عمره كله مثمراً ومثاباً عليه". ثم يقول: "لقد قال الإمام الرباني أحمد الفاروقي رحمه الله: بينما كنت أقطع المراتب في السير والسلوك الروحاني، رأيت أن أسطع ما في طبقات الأولياء وأرقاهم وأطفهم وآمنهم وأسلمهم، هم أولئك الذين اتخذوا اتباع السنة الشريفة أساساً للطريقة". ويعلق الأستاذ النورسي على كلام الإمام الرباني هذا قائلاً: "نعم إن

الإمام الرباني مجدد الألف الثاني ينطق بالحق. فالذي يتمسك بالسنة الشريفة ويتخذها أساساً له، هو أهل لمقام المحبوبة في ظل حبيب الله ﷺ". (٣)

ومن هذا المنطلق ينكر الأستاذ النورسي رحمه الله على الشيخ محي الدين بن عربي فكرة وحدة الوجود، ولكنه لا يرميه بسببها بكفر أو زندقة أو فسوق، ولا يتجاهل سعة علومه وعمق أفكاره وعلو مقامه. يقول جواباً عن سؤال يتعلق بـابن عربي رحمه الله: "إنك يا أخي بسؤالك هذا تضطريني إلى أن أناقش -وأنا الضعيف العاجز- خارقة الحقيقة وداهية علم الأسرار محي الدين بن عربي، ولكن لما كنت سأخوض في البحث معتمداً على نصوص القرآن الكريم، فسوف أستطيع أن أخلق إلى أعلى من ذلك الصقر وأسمى منه، وإن كنت ذبابة". ثم يقول: "أعلم أن محي الدين بن عربي لا يخدع ولكنه ينخدع، فهو مهتد ولكنه لا يكون هادياً لغيره في كل ما كتبه، فما رآه صدق وُصواب ولكن ليس هو الحقيقة..".

وقد أطلال الأستاذ النورسي في مناقشة أفكار ابن عربي رحمه الله، ملتزماً ضوابط اللياقة والأدب دون تجريح ولا اتهام له، وأتى بكلام دقيق مقنع يضيق هذا المقام عن نقله. وبوسعنا أن نوجز ذلك كله في قوله عنه: "ولما كان الشيخ قد انتهج مسلكاً مستقلاً، وكان صاحب مشرب مهم وله كشافات ومشاهدات خارقة، فإنه يلجأ باضطرار إلى تأويلات ضعيفة وتكلف وتمحّل ليطبق بعض الآيات الكريمة حسب مشربه ومشهوداته، مما يخدش صراحة الآية الكريمة ويجرحها.. فالشيخ ابن عربي له مقام خاص لذاته، وهو من المقبولين، إلا أنه بكشافاته التي لا ضوابط لها، حرق الحدود وتجاوزها وخالف جمهور المحققين العلماء في كثير من المسائل" (٤).

أقول: ولم أجد في شيء من أحاديثه عن ابن عربي رحمه الله، ما يذكره جل المترجمين له من أن الباطنيين دسّوا في كتابه "الفتوحات" كثيراً من الأفكار الباطنية والعقائد الكفرية التي يتبنونها، منهم ابن العماد في كتابه "شذرات الذهب"، وابن المقري في "نفع الطيب"، والإمام الشعراني في "اليواقيت والجواهر"، وحاجي خليفة في "كشف الظنون". وأعتقد أن هذه حقيقة تعلو على الريب والظن. لا أدلّ على ذلك من أنك لا تجد في فتوحاته فكرة تناقض العقائد الإسلامية إلا وتجد في مكان آخر فيه ردّاً عليها وتحذيراً من الأخذ بها. تأمل في هاتين البيتين من تأنيته تجد أهما ينطويان على نقيض وحدة الوجود ويقرران العقيدة الإسلامية المأخوذة من كلام الله وسنة رسوله ﷺ:

وجدت وجوداً لم أجد ثانياً له
وشاهدت ذاك الحق في كل صفة
وطالب غير الله في الأرض كلها
كطالب ماء من سراب بقعة

النورسي والتربية الروحية

وبعد، فكلنا يعلم أن الأستاذ النورسي ما إن تجاوز الأربعين من عمره حتى نفّض فكره ويديه من السياسة وأحاييلها، واتجه في أنشطته الإسلامية إلى ميدان التربية وتركبة النفس ونقد الذات، وافتتح حياته الجديدة بقوله: "أعوذ بالله من الشيطان والسياسة".

كانت صلته بالناس الذين يرشدهم ويربّهم عن طريق رسائله التي يكتبها إليهم فتنتشر فيما بينهم، أما هو فكانت تتلقاه السجون سجناً إثر سجن، لا يتأتى له -إلا نادراً- الجلوس إليهم والتحاور معهم. ومع ذلك فقد أثمرت جهوده هذه كما لم تثمر جهود أي جماعة إسلامية أو حزب إسلامي؛ اتخذ من السياسة سُلماً للبلوغ به إلى عقول الناس وأسماعهم. ها أنتم ترون اليوم ثمار تربيته الروحية والسلوكية، يانعة متجددة على عرض هذا المجتمع وطوله، بيد ضياءه الساطع ما تراكم من ظلمات الجهالة والفسوق والإلحاد. وكأنه ضياء أشرق للتو أو لكأها تربية تلقته الآذان والألباب بالأمس القريب.

فما السرّ الكامن وراء هذه الظاهرة الغريبة التي تتبدى في سطور ورسائل وكلمات مضى على توجيهها إلى الناس ما يناهز القرن من الزمن؟ السر يكمن في هذه الإشرافة الروحية التي كانت تتوهج بها حياة الأستاذ النورسي. لقد كان هذا الوهج هو الروح السارية في رسائله وكلماته، وكان معينه متمثلاً في ذلك الجهاد الخفي الذي كان يأخذ به نفسه، مراقبةً لله، وذكرًا دائماً له، والتجاءً إليه بالأسحار، وملازمة للأوراد التي تصفي القلب في البكور والآصال. وإنه للجهاد القدسي الذي كان في صدر الإسلام مسمى لا اسم له، ثم غدا اليوم اسماً لا مسمى له. ■

(٤) كلبه الشريفة، جامعة دمشق / سوريا.

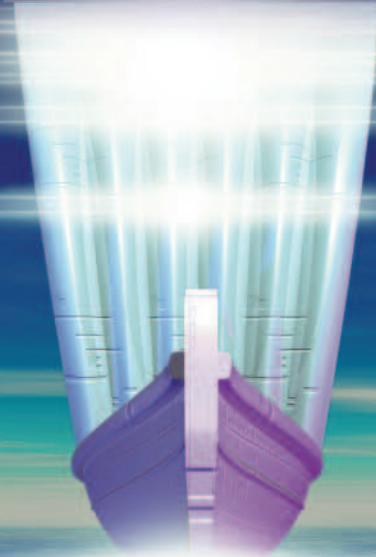
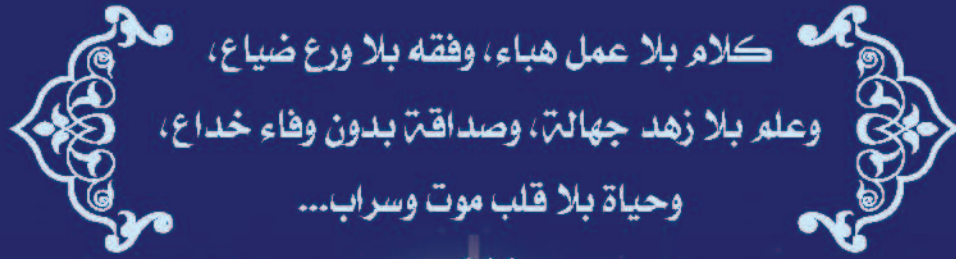
الهوامش

(١) الشاعرات لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالح، ص ٣٧٤.

(٢) للمعات ص ١٩٧-١٩٨؛ المثنوي العربي النوري ص ٢٨١-٢٨٢.

(٣) للمعات ص ٨١.

(٤) للمعات ص ٥٢ و٥٣.



أنفاس ظمئنا إليها...



إطالة على الداعية المرتقب

إلى هذا الجوهر الذي يقوم عليه كيان الإنسان، ثم إزالة ما تراكم عليه من صدأ كي يتألق من جديد ويتبين معدنه النقي النفيس فإن الإخفاقات ستتوالى بدون انقطاع.

نعم، "إذا كان الإنسان جزء مهما من هذا الكون فينبغي ألا نسمح له بتدمير نفسه وسحق روحه، لأن دمار هذا الجزء المهم من الكون قد يسبب دمارا للكون كله. فنحن مسؤولون كونيا وأخلاقيا عن هذا الجزء وصيانته من الاهتيار، ولن نسمح له بأن يخرج على التوافق الكوني المدين بدين الله".^(١) فقضية الإيمان قضية تتعلق بالكون كتعلقها بالإنسان، وإن صلاح الكون بصلاح الإنسان، وفساده بفساد الإنسان.

الدعوة إلى الله ليست مسألة مزاجية يزاولها الداعي قبل أن يعبأ لها فكريا ونفسيا وروحيا. ومن دون ذلك يمكن أن يؤدي عمله العشوائي والمزاجي إلى العكس من المرجو من هذه المهمة النبيلة. فالدعوة "علم وفن".^(٢)

الدعوة علم وفن

فما لم يكن الداعية على علم معمق بالذي يريد قوله، وما لم يكن على دراية بأقصر الطرق الموصلة إلى روح الإنسان فإن الإخفاق سيكون من نصيبه. وإن آمادا بعيدة ما زالت تفصل بين الدعاة وجوهر الإنسان، وإلى هذا يعزى فشل الداعية في كسب المخاطب إلى صف دعوته. فما لم يكن بوسع الدعاة الوصول



ومن ثم على الدعاة أن يعوا هذه القضية كل الوعي بأبعادها الكونية والإنسانية، وأن يرتفعوا إلى مستوى المسؤولية. وذلك بإخصاب أرواحهم وإذكاء أفتدثهم وشحن أذهانهم وموازنة حياتهم وتعميق رؤاهم الإيمانية. وأن يدوروا مع الزمن حيثما دار، ويجروا مع الحياة حيثما جرت، ويركضوا وراء الإنسان حيثما مضى، وإلى أي عالم كان انتماءه، وأي ثقافة كانت ثقافته ولغته.

في عصر العولمة هذا، أصبح للعقل الجمعي قوة تأثيرية أوسع وأسرع مما تستطيعه العقول بجهدها الفردي. فقيادة العالم وإحداث التغيير فيه نحو الأسوأ أو الأفضل، يمكن أن يكون أكثر فاعلية إذا مارست العقول نشاطاتها الذهنية والمعرفية من خلال المؤسسات، سواء كانت هذه المؤسسات علمية أو اجتماعية أو اقتصادية أو ثقافية أو أخرى.

السكونية والحركية

ليس هناك شيء أكثر خطورة على المسلمين من السكون والاسترخاء والاستسلام للنوم والأحلام. "فالسكونية عفونة روحية تقتل المواهب وتحطم الإبداع وتحقق البطولة وتكتم أنفاس العبقريّة. ومنذ مات النازع الحركي في المسلمين، وتوقفوا عن الهجرة والانسحاب في أرجاء الأرض حاملين دعوتهم إلى العالم... منذ ذلك الوقت توقفت إبداعاتهم وغاب فهمهم ونجمت في أوساطهم إشكالات فكرية موهومة وخصومات مذهبية جدلية، وانشغل بعضهم ببعض، وربما قاتل بعضهم بعضاً، متناسين مهمتهم الدعوية الأساس التي ندبهم الله تعالى إليها. إن دعاة الإيمان إذا ما ساحوا وهاجروا إلى أي مكان في العالم وضربوا جذورهم فيه، فإن الشجرة لا بد أن تنبت عن قريب، وأن تورق وتثمر، وإن تاريخاً جديداً للإسلام سيبدأ يتشكل في المكان الذي زرعوا أنفسهم فيه."^(٣)

وهذه طبيعة الإسلام، فالإسلام يأبى السكونية والطمودية ويأبى المحدودية، وقد هاجر المسلمون الأوائل وهم يجرون في العالم حيث يجري بهم الإسلام. وإذا كان العالم قد استنزفته اليوم قوى الغرب وقيمه وسلوكياته النفعية، وأفرغته من كثير من قيم الإيمان، فإن هذا يحتم على المسلم أن يبادر بنفسه لكي يعيد لإنسان اليوم عمق الهدفية الإلهية في نفسه.

ومن المنطلق حث فضيلة الأستاذ فتح الله كولن رجال التربية والاقتصاد والثقافة وأهل الحمية من الشعوب مرات عديدة وبمناسبات شتى على إنشاء مدارس وجامعات في تركيا وفي مختلف أرجاء المعمورة، وجعلها مراكز للتربية والتعليم، تدعو إلى

الحب والسلام، والحوار والتسامح، ومزج العلم بمحائق الإيمان، ومواكبة العصر من حيث التطورات العلمية والتكنولوجية، مع أخلاق سامية يشار إليها بالبنان. وربما يكون هذا أسلوباً جديداً غير مسبوق في تعريف الشعوب برسالة الإسلام السمحة. وقد أثبت نجاحه حيث استطاع أن يوصل صوت الإيمان إلى أصقاع قصية لم تكن قد سمعت بالإسلام وسماحته في شرق العالم وغربه وشماله وجنوبه وكافة قاراته.

الانفتاح على معطيات العصر

إن الدعوة إلى الله منفتحة على معطيات العصر في العلوم والفنون والأفكار المتنوعة والثقافات المختلفة. وذلك لإكسابها مزيداً من الاحترام في أوساط واسعة من المثقفين والمفكرين في شتى أنحاء العالم. ينبغي على المسلم أن يكون هو الأرقى والأفضل بين العقول، وأن يحتل كرسي الأستاذية التي يرجع إليها في أمور الثقافة والحياة والإيمان، وألا يكون منكفئاً ومنغلقاً وبعيداً عن الواقع.

أجل لا شك أن العقلية الحضريّة رافد من روافد تشكيل العقل الدعوي، إلا أنها يجب ألا تستبعد الداعية يوماً، ولا يكون هو سجين نظريات وآراء، بل حراً يقبل منها ما له ملمح إيماني، ويترك ما ليس له مثل هذا الملمح، وهو لا يعرف هذا الصراع المؤلم بين ما يقرؤه فكراً ويحيه عملاً. الفكر عنده هو الحياة والحياة عنده هو الفكر.

والداعية كتاب مفتوح، كل صفحاته وسطوره مقروءة ومكتشوفة، ليس فيه صفحات مطوية عن العيون أو صفحات مكتوبة بالحر السري. وكما كان رسولنا الحبيب صلى الله عليه وسلم سفراً مفتوحاً يقرؤه من يريد، من تاريخ ميلاده إلى انتقاله إلى الرفيق الأعلى، هكذا تكون حياة أصحاب الدعوات وأفكارهم. حياة كلها نهار لا ليل فيها، وضحي واضح لا لبس فيه، وظاهر لا باطن له.

إنقاذ الإيمان

الداعية إلى الله لا يزاحم أهل الدنيا على دنياهم ولن يراهمهم. إن الدنيا نفسها لو جاءت تسعى لعزف عنها وأدار إليها ظهره. إنه مشغول بدعوته، بإنقاذ إيمان الناس. إن إنقاذ إنسان واحد من وهدة الضلال هو خير له من الدنيا وما فيها. وإعادة إيمان غائب إلى قلب إنسان هو أعظم ما يطمح إليه، وإيصال صوت الإيمان إلى أسماع من لم يسمع به هو غاية الغايات عنده. هذه هي دعوته يعلنها على رؤوس الأشهاد لا يكتفم منها شيئاً ولا يخفي منها شيئاً.



التركيز على جوهر الإنسان

إن معالجة الجفاف الروحي والجذب الفكري لدى المسلمين هو من أبرز مهماتنا. وجهلنا بالإنسان يجعلنا نقف حائرين تجاهه، ومن ثم علينا أن نهتم بالدراسات التي تعمل على كشف أسرار الإنسان ظاهرا وباطنا، ونشجع الدعاة على التخصص بها لكي تتوفر للدعوة معلومات عن كينونة الإنسان وكيفية التعامل دعويا معها، والتعمق في حقيقتها. لأن الفوضوية الروحية تحتاج العالم اليوم وتستدر العطف والإشفاق من أصحاب الغيرة على الإنسان. إن سر قوة الدعوة هو في تطابقها مع قوانين النفس البشرية. والذين سئموا من التحليق حول جيف الدنيا سيجدون في أجوائها ما يتوقون إليه من الطهر والنقاء، وأصحاب الذهنيات المعقدة والنفس المحترقة سيرون واحتهم البرود في إقليمها. أما أولئك الذين يتهيبون الإسلام ويخافون منه فسيلمسون ألا شيء أكثر أمانا وأمانا وسلاما من الالتجاء إلى حماء، وأن المعرفة كل المعرفة فيه، وأن من لا يعرفه فإنه لا يعرف في الحقيقة شيئا. وسكارى الأحزان ومسحوق الأوجاع سيجدون في صيدلية هذه الدعوة البلسم والشفاء.

إن الدعوة كلها دعاء، وليست شيئا آخر غير الدعاء. دعاء بلسان الحال أو بلسان المقال. وبين الحال والمقال ترتفع الليالي مثقلة بالتهجدات، موقورة السمع بالتضرعات، نضاجة بدمع القلوب، صراخة بوجد الأرواح. وركب الدعوة يمضي في طريقه مشرقا أو مغربا يقوده صواب المنطق، وتحدوه فطنة الحكمة، ويأتيه المدد الإلهي من كل جانب، وتواكبه العناية الربانية حيثما مضى وأنى ألقى عصا ترحاله.

فالداعية يحذر من الهلاك الروحي المخيف، والسقوط في هاوية الانحلال النفساني الداخلي. إنه لا ينفك يدعو أولئك الذين يريدون الخروج من مستنقع الوحل ولكنهم لا يعرفون السبيل إلى ذلك، إنه يدعوهم إليه لينخرطوا في صفوف الإيمان.

الحوار مع الآخر

إن سر الدعوة يكمن في علانيته ووضوحها وعموميتها، وفي المرونة التي تؤهلها لمحاورة الآراء والأديان والثقافات المختلفة، لتكشف لهم عن حقيقة رسالتها، وتزيل التساؤلات التي تثار حولها، وتعبر عن ذاتيتها بنفسها، ولا تدع لأحد مجالا لتشويه صورتها.

إن الدعوة كائن روحي في إهاب بشري، شخص معنوي

ذو ذاتية مستقلة، لكنها منفتحة على جميع الذوات، وذو إدراك عال، غير أنه ملزم بمخاطبة جميع الإدراكات. "وإذا كانت دعوة الإسلام قد غيرت وجه العالم القديم، ورسمت خارطة جديدة لفكره الديني، فهي اليوم مرشحة كذلك للقيام بالدور نفسه إذا ما وجدت ممثليها الحقيقيين."^(٤)

الداعية المرتقب

الداعية المرتقب كيان إنساني مشع لا يتوقف عن بث شعاعه. فكما أن بعضا من عناصر الطبيعة المشعة لا تستطيع أن تكف نفسها عن الإشعاع، وكما أن الشمس لا تستطيع التوقف عن إرسال ضوئها إلى الأرض، والقمر لا يقدر أن يحرم الليل من نوره، هكذا الإنسان الداعية لا يمكنه أن يحبس نوره عن الآخرين أو يستر ضيائه عنهم، لأن الدعوة لهب يشعل ذرات دمه، وضيؤه يمجج في حنايا ضلوعه. فهو يضيء في أي مكان يحل فيه أو يرتحل عنه.

فلو اثار الكون فجأة، وتناثرت كواكبه، واصطدمت أجرامه، وسقطت السماء على الأرض، وكادت القيامة تقوم وفي يد الداعية فسيلة نور، فإنه يبحث عن قلب يزرع فيه فسيلته قبل أن يغدو العالم رمادا تذروه رياح العدم. ولأن العطاء عنده صار طبيعة وسجية فهو لا يستطيع أن يتوقف عن العطاء، كما لا يرجو سوى مرضاة الله تعالى أجرا. لذا فإن دائرة مستمعيه في اتساع، وصوت دعوته في ارتفاع.

دعاة الإسلام الحق إحوة البشر وأشقاء الإنسان، لأنهم يمتون بنسب إلى كل قلب، يرثون للأرواح السلية من النور، ولقلوب المحلدة من فجر اليقين. إنهم أطباء القلوب، وكما تنبجس الحياة من الموت، هكذا ويلمسة منهم تنفجر الحياة في موتى القلوب. لذلك صاروا مثابة يؤمهم الجحيم العفير من أحيار الناس طلبا للنجاة والشفاء. هؤلاء هم الدعاة العالمون العاملون، أما أولئك الذين يعلمون ولا يعملون فإنهم كالثقوب السوداء لا تعكس نورا إلى شيء.

إن الداعية المثالي بطل ثابت الجأش متماسك النفس قوي الإرادة، صاحب رصانة علوية، نبيل الفكر والروح دائم الثوب، لا يخفت حماسه، ولا ينطفئ وجاهه، لا يعيا ولا يكل، في روحه تسكن أجداد أمة وتاريخ إيمان وفجر الأبد وبقين الخلود. إنه عالم متين من القوة التي لا تعرف الضعف والانهزام، يجيش قلبه بالرأفة على أولئك النائيين الضالين من بني الإنسان. وعلى وفرة رجولته ورجاحة فضله

جم التواضع، صوام اللسان إلا عند الضرورة، لا يثير ضجيجا، ولا يقيم مناقحة، لا يتفجع ولا يتشكى. إنه يدور مع القدر حيث دار، ومع القدرة يستمد منها القوة، ويطلب منها المدد.

يقول صاحب كتاب طرق الإرشاد في الفكر والحياة: "اعلموا أن الغرب لن يستجيب لدعوتكم إلا إذا وجد أمامه أناسا تنفطر قلوبهم حزنا من أجل خلاص الإنسانية، وإشفاقا عليها... أناسا يقضون لياليهم بالتهجد والقيام لله، وألستهم رطبة بذكر الله، لا يهدرون الوقت عبثا، بل يقضونه بما يفيد البشرية وينفعها. أجل، الغرب لن يسلم روحه إلا أناسا مشحونين بمثل هذه الطاقة. فإذا أصبح ممثلو الإسلام على هذه الشاكلة، فسيهرع الغربيون إلى الإسلام ويدخلون في دين الله أفواجا. ولكن، والحالة معكوسة، فقد تجلّت النتيجة معكوسة أيضا".^(٩)

إن عظماء الدعاة مشغولون دائما بأقدس الأفكار وأطهرها. "فهم يعلمون جيدا أن المسلم عنصر أساس في نظام العالم، فكما لا يمكن الحديث عن النظام في عالم خال من المسلمين، كذلك لا مجال للإرهاب والفوضى في أماكن يوجد فيها المسلمون. وهذا منوط بأداء المسلم وظيفته التبليغ والتمثيل حق الأداء".^(١٠)

فهم يراقبون أنفسهم ويسارعون في ترميم ما ينهار من عزائمهم وما ينصدع من إراداتهم باللجوء إلى كتاب الله والاستمداد من نور رسول الله صلى الله عليه وسلم. واغترابهم الروحي ميزة عالية يجذب إليها من يرى فيها استعلاء على تفاهات البشر. وعلاقاتهم الحميمة مع "جنس الإنسان" تفتح لهم منافذ الاتصال بالعالم. وما يلاقونه في سبيل الدعوة من عقبات صغيرة كان أو كبيرة لا تثبط همهم ولا تقتل رجاءهم.

إنهم أذكاء اللب شهماء الأفتدة، على قلوبهم مدونات نورانية من عالم الغيب. فقلوبهم في جيشان دائم لا يتوقف، وصدرورهم تنطوي على رغبة في اعتناق كل البشر. إنهم بشريون حقا ولكنهم في قلوب ملائكية، وأدميون ترابيون، إلا أن أرواحهم تسبح في الملاء الأعلى. ■

(٩) كاتب وباحث / تركيا

اطبوامش

(١٠) طرق الإرشاد في الفكر والحياة، تأليف: م. فتح الله كولن. ترجمة: إحسان قاسم الصالح، دار النيل للطباعة والنشر، ص ١٠٣ وما بعدها.

(١١) المصدر السابق.

(١٢) نحو الفردوس المفقود، فتح الله كولن، كتاب لم يترجم بعد، ص ٦-٧.

(١٣) انظر طرق الإرشاد في الفكر والحياة، ص ١٨٥-٢٠٨.

(١٤) المصدر السابق، ص، ١١١.

(١٥) المصدر السابق، ص، ١١١.

شجرة الإخلاص

لا تتكلم قبل أن تغمس لسان قلبك
برحيق رُوحك لتَهافتَ عليك الضمائر
تَهافتَ الفراش على رحيق الزهر،
وكم من القلوب ستغتسل بأضواء قلبك
عندما تورق شجرة إخلاصك...

الضاربون في الأرض

❖ أديب إبراهيم الدباغ ❖

ش

شباب أطهار، ذوو قلوب فية نابضة بالإيمان، وإرادات شماء، وعزائم لا تعرف المستحيل، يقود خطاهم إلى فجاج الأرض شوق مبرح، ويلهب حماسهم فكر دعوي إبداعي، ورؤية قياضة بالوضوح، وحدة في البصر والبصيرة... أخذوا كتاب الله بقوة، وضّمّوه إلى صدورهم وكأنه عليهم ينزّل، وإياهم يخاطب، يحرسون عليه حرصهم على ماء عيونهم، ويرومون إيصال رسالته إلى أي إنسان في أي مكان من العالم، حتى لو خاضوا إليه أشد البحار نأياً واستيحاشاً، أو جابوا إليه قرارة الكون، أو غاصوا إليه طبقات الأرض، أو اعتلوا إليه أطباق السماء... معهم مدرسة ينشئونها، وكتاب يدرسونه ويدرسونه، وقلم يُعلّمون به ويتعلمون منه. إذا ما رأيتهم في حومة الفكر أو العمل، وهم يشفون عن روح مشرق، وقلب وضاء، وفكر خصب.. لك أن تتساءل: أهم أنداء سماوية منهلة على عطش الأرض، وجذب الحياة؛ أم هم جنس إنساني جديد غير هذا الجنس، انشقت عنهم أرض غير هذه الأرض؛ أم قذفت بهم أمواج الغيب على ضفاف الدنيا لكي يشاركوها في إصلاحها قبل أن تبيض وينقلب عاليها سافلها.

أما البؤساء المقلون بالآلام والدموع والدماء فهم يرقبونهم من بعيد، رافعين نحوهم أذرع الضراعة، ومعبرين عن شوقهم للقياءهم ومتظرين يدهم الآسية، وروحهم المواسية، وقلبيهم المعزّي، وندايم الهابط على القلب القاحل، والنفس اليابسة، والذهن الناشف. إنهم طاقة إيمانية كبرى أحسبها لو سلطت على جبل لجعلته دكاً ولختر صَعَقاً.

إنهم إبداعيون ابتكاريون، غير تقليديين، قادرون على تجديد فكرهم الدعوي بين يوم وآخر، وفي ذهنهم دائماً السؤال الملح: هل من المحتمل أنه على الرغم من كل التجارب الدعوية التي عرفناها وعرفها الدعاة منذ قرنين من الزمن فإننا ما نزال نعاني من السطحية والضبائية في الفهم والعمل؟! وهل من المحتمل أننا قد أخطأنا فهم تاريخ العمل الدعوي وقصرناه على أنماط تقليدية واحدة ولم نحاول التجديد فيها، وهذا هو الذي يسبب لنا اليوم الكثير من الإحباط؟! أجل إن ذلك قد يكون محتملاً.

وكما يضرب هؤلاء الفتية في الأرض - كل الأرض - لا يصدّهم شيء، ولا يحول بينهم وبين مبتغاهم حائل، فإنهم يضربون كذلك في "النفس البشرية" ويطلقون وراء أشدّ تخوم النفس ظلمة، وأكثرها رعباً واستعصاءً، حيث تتصارع في الأعماق مئات من الـ "أنا" ليصالحوا بينها، وينشروا الأمن والسلام في أرجائها، ويسلكوا بها نحو "المعرفة القرآنية" التي تسوّي جميع صراعات الإنسان مع نفسه ومع الكون ومع الله تعالى.

إنه الإصلاح العقلي والروحي الذي ينشده هؤلاء الفتية لأنفسهم وللآخرين، وهم في الوقت نفسه يشيرون بطريقة جديدة للحياة يتعاون فيها "العقل القرآني" - إذا صحّ التعبير - مع جدّة التجربة، وشدّة المعاناة التي تنجي الإنسان من السطحية والتفاهة، وتشعره بقدسية الحياة من حيث كونها مرآة واسعة تعكس المفهوم القرآني في إعجازيتها وكونها آية من آيات الخلق والإيجاد.

والداعية من هؤلاء الفتية سهل هين لئن، لا يني حول نفسه جداراً عقلياً أو نفسياً، ولا يحيط نفسه بمالة فحمة لا يستطيع الآخرون أن ينفذوا منها إليه، بل هو على استعداد دائم لقبول الآخرين والاستماع لأرائهم والإفادة من تجاربهم بكل صدق وحمية، وهذا هو الجانب الأخلاقي المطلوب من كل داعية يتصدى للدعوة إلى الله. ■

(*) كاتب وأديب / العراق





الهجرة مشروع لبناء حضارة إيمانية جديدة

د. عبد الحليم عويس*

تلك العصبية المستعلية التي تعرف منطق القوة، ولا تعرف منطق الحق، وليس في وعيها ولا في قاموسها أن تهادن الإيمان، وأن تترك مساحة للنفاهم والحوار، وبالتالي تصبح الحياة معها - بعقيدة إيمانية بعيدة عن إشعاعاتها - أمراً مستحيلًا.

إننا نريد أن يفهم مضمون الهجرة الإسلامية كما ينبغي أن يفهم، وأن تكون هجرة الرسول هي المرجعية لهذا الفهم. فقد بُعث محمد ﷺ "رحمة للعالمين"، فكيف تكون إذن رحمته بالقوم الذين انتسب إليهم، أو بالقوم الذين عاش معهم، أو بالأرض الطاهرة التي نشأ فيها، وتربى في بطاحتها وتنسم عبقرها، وشاهد جموع الزاحفين إلى أرضها الطاهرة من كل فج عميق؟!

إن رحمته - بالضرورة هنا - لا بد أن تكون أكبر من أي رحمة أخرى... ولهذا نراه ﷺ يرفض دائماً أن يدعو على أهل مكة، وحتى وهو في هذه اللحظة البالغة الصعوبة، عندما وقع في حفرة حفروها له في موقعة أحد، وتناوشته سهامهم من كل مكان، وسالت دماؤه الطاهرة على جبل أحد الذي كان يتبادل الرسول ﷺ الحب معه، لأن بعض قطرات دمائه الزكية قد اختلطت بتراب أحد الطاهر، فأصبحتا حبيبتين... حتى في هذه اللحظة البالغة الصعوبة لم يستطع لسانه الزكي، ولا قلبه النقي أن يدعو عليهم، ولا أن يشكوهم إلى الله، وإنما كان يردد على مسمع من الناس جميعاً: "اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون" (متفق عليه). وعندما كان يرى ثمادي قريش في الحرب كان يتأسف عليهم ويقول: "يا وَيْحَ قريشٍ لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خَلُّوا بيني وبين سائر الناس" (رواه الإمام أحمد في مسنده).

ع عندما هاجر الرسول ﷺ من مكة لم يهجر قلبه تراب مكة ولا الكعبة الرابضة في قلب مكة، ولقد أعلن ﷺ ذلك بعبارة صحيحة عندما التفت إلى مكة وهو يودعها قائلاً: "ما أطيبك من بلد وأحبك إليّ! ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك." (رواه الترمذي)

وعندما هاجر الرسول ﷺ من مكة لم يهجر قريشاً ولا بني هاشم، فلقد كان يحب الجميع ويتمنى لهم الهداية والخير، كما أنه - وهو الوفي - لم ينس لبني هاشم - مسلمهم وكافرهم - مواقفهم معه عندما قادهم عصبية الرحم فحموه من كل القبائل، ودخلوا معه شعب أبي طالب يقاسون معه ومع المسلمين الجوع والفاقة، ولا يمتنون عليه بذلك، مع أنهم على غير دينه، لكنه الولاء للأرحام.

هاجر عليه السلام ولكنه لم يهجر

فالرسول المهاجر ﷺ لم يهجر كل ذلك بل حمله معه في قلبه، يحنّ إلى ذلك اليوم الذي يعود فيه إلى مراتع الصبا، وإلى الرحم الذي وقف معه حتى قال قائلهم وسيدهم أبو طالب: "اذهب يا ابن أخي! فقل ما شئت فوالله لن أسلمك أبداً"، مع أنه لم يكن على دينه.

وإنما كانت هجرة الرسول ﷺ من مكة هجراً للوثنية المسيطرة التي لا يريد أصحابها أن يتعاملوا بمنطق الدين أو منطق العقل أو منطق الأخلاق. فهذه وثنية يجب أن تهجر وأن يهاجر من مناطق نفوذها وإشعاعاتها.

وإنما هاجر الرسول، وهجر - إلى جانب الوثنية المسيطرة -



من بلادكم - لأي سبب من الأسباب - لا تعني القطيعة مع أرض الوطن، ولا مع الأهل والعشيرة، ولا مع المسلمين في أي مكان، مهما تكن الخلافات الظرفية الطارئة معهم؛ بل يجب أن تبقى الصلة قائمة بينكم وبين الأهل والقوم، ثمودهم بأسباب الحفاظ على الدين من مواقعكم، لكي يفتنوا ويمتدوا بإشاعات الإيمان إلى أكبر مدى ممكن، لاسيما ووسائل التواصل الآن في أقوى مستوى عرفته البشرية، وبالتالي تكونون قد وصلتكم الرحم، وجمعتم بين الثلاثة المتكاملة التي تمثل أركانها الثلاثة وحدة لا تنفصم، وإلا فقدت الأمة "مكانة الخيرية" التي رفعها الله إليها عندما قال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠) إنها ثلاثة الإيمان والحجرة والجهاد.

أجل! في عصرنا هذا يجب أن يعود معنى الحجرة إلى منبعه النبوي، فليست الحجرة هجراً للوطن، وقطيعة تاريخية أو معرفية معه، بل هي هجرة موصولة بالماضي، تعمل على تعميق الإيمان فيه، وتبني قلاعاً للإيمان في المهجر الجديد، وتصل بين الماضي والحاضر والمستقبل انطلاقاً من درس الحجرة النبوية.

التواصل مع ماضي المهاجر مطلوب

إن الحرية التي تريد أن تتمتع بها في مهجرك، والثروة التي تريد أن تكوّنها، وحتى الدعوة التي تريد أن تبلغها - إن كنت ممن اصطفاها الله للدعوة والبلاغ... كل هذه تدفعك إلى التواصل مع الماضي من جانب؛ وتدفعك إلى بناء حقائق للإيمان بفوح عطرها في وضعك الجديد، وبلدك الجديد، من جانب آخر.

ليكن معنى الحجرة واضحاً في وعيك، فهي ليست هجرة من أرض ولا أهل إلى أرض وأهل آخرين، بل هي هجرة من قيم ضيقة ضاغطة تكبل حركة الإيمان، وتفتعل الصدام المستمر، وترفض الحوار بين الأفكار والعقائد، إلى قيم أخرى تسمح لأشجار الإيمان أن تنمو، وتسمح بالتفاعل والتجاوز، ومواجهة الرأي بالرأي، والحجة بالحجة، وتكون مؤهلة لأن تسمح لأهل

وكم راودته الجبال الشمم - بأمر من الله - أن تطبق عليهم فكان يرفض ويقول: "أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً" (متفق عليه). وعندما جاءت فرصة السلام معهم أصرّ عليها، مع تعنتهم في الشروط تعنتاً أغضب أصحابه، لكنه كان يريد لهم الحياة، وألا تستمر الحرب في أكلهم، وألا يبقوا - وهم قومه وشركاؤه في الوطن - مستمرين في تأليب القبائل عليه لدرجة أنهم أصبحوا العقبة الكأداء في طريق الإسلام؛ مما يفرض عليه بأمر الله الجهاد لإزالة هذه العقبة، ونجح الرسول في إزالة عقبتهم بقبول شروطهم المحجفة، حباً لهم، وحفاظاً على بقائهم، وأيضاً لإفساح الطريق أمام دين الله.

أما حين دخل مكة ﷺ فاتحاً فقد حافظ بكل قوة على كرامتهم ودمائهم، ولم يقبل مجرد كلمة خرجت من فم سعد بن عبادَةَ ﷺ - أحد الصحابة والقادة الأجلاء - وذلك عندما قال: "اليوم يوم الملحمة" فنزع الراية منه، وأعطاه لابنه قيس وقال: "لا، بل اليوم يوم الرحمة، اليوم يعزّ الله قريشاً".^(١)

وعندما استسلمت مكة كلها تماماً، وقف أهل مكة ينتظرون حكمه فيهم مستحضرين تاريخهم الظالم معه، لكنهم سرعان ما تذكروا أنه الرؤوف الرحيم الطاهر البريء من رغبات الانتقام أو المعاملة بالمثل. فلما سأهم: "مانظنون أني فاعل بكم"، قالوا: "أخ كريم وابن أخ كريم"، فرد عليهم قائلاً: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمْ﴾ (يوسف: ٩٢)، وهي كلمة نبي الله يوسف ﷺ التي قالها لإخوته، ومنها ندرك أنه اعتبرهم جميعاً إخوته، كأهم إخوة يوسف ﷺ، ثم أعلن العفو العام بتلك الجملة الخالدة: "أذهبوا فأنتم الطلقاء لوجه الله تعالى"^(٢). فكأنه أنفذهم من الموت الزؤام عليه الصلاة والسلام.

دعوة للمهاجري العصر الحاضر

ونقول للمهاجرين من أبناء عصرنا لظروف مختلفة إلى أي بلد من بلدان العالم: هذه هي هجرة رسول الله ﷺ بين أيديكم، وهي كتاب مفتوح، فأمعنوا القراءة فيه لتدركوا منه أن هجرتكم



الإيمان والحق أن يعيشوا كما يريدون، وأن يبنوا قلاع الإيمان في النفوس عن طريق الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن.

إن الحجرة النبوية الإسلامية هجرة يقصد بها كسر القبود التي تفرض على الإيمان، وفتح نوافذ أخرى في أرض جديدة. وليست الحجرة الإسلامية أبداً من تلك الحجرات التي تعني زحفاً على البلاد على حساب أهلها، أو لتحقيق الثروة ثم الخروج بها، أو للاعتماد عليها لفهر أصحاب البلاد الأصليين، وجعلهم مجرد منفذين وأدوات لمشروعات وطموحات المهاجرين إليهم.

فالحجارة الإسلامية اليوم - إلى أي بلد في العالم - يجب أن تكون هجرة تسعى إلى التواصل والتعارف والتحاور والحب؛ بحيث يشعر كل الناس أنّ الأفراد المسلمين أو المجموعات الإسلامية التي تعيش بينهم إنما تمثل روحاً جديدة، تبني ولا تهدم، وتزرع الخير، وتقاوم الشر، ولا تعرف التفرقة في ذلك بين المسلم وغير المسلم، والوطني، والوافد، والأبيض والأسود.

وكل ذلك لن يتحقق إلا إذا رأى الناس في المسلم المهاجر إليهم - من خلال أقواله وأفعاله، وإسهاماته الخدمية، وآفاقه المعرفية، وعبوديته لله - شخصية متميزة جادة تفعل ما تقول، وتعيش معهم حياتهم اليومية، وآمالهم، وآلامهم، يفيض منه الخير والنور، تلقائياً وعفويّاً، كأنه بعض ذاته، وكأنه مرآة قيمه، وصدى أخلاقه، وأثر منهجه في الحياة.

وهنا يتساءل الناس من غير المسلمين: من أين لهذا المهاجر كل هذا الخير والنور؟ من أين له هذه الإنسانية المندفقة؟ ومن أين له هذه الرحمة التي تعم الإنسان كل إنسان، بل والحيوان والنبات أيضاً... فسيصلون حتماً إلى الإجابة الصحيحة، وهي أن هذا الإنسان يرتشف من نبع الأنبياء، ويستمد وعيه الحضاري ومشروعه الإنساني الرحيم من نبيه وإمامه، وإمام المسلمين الأعظم، بل وإمام الإنسانية محمد ﷺ.

فقد كانت هجرته المباركة روحاً جديدة، عبّر عنها أحد

الصحابه الكرام (أنس بن مالك ؓ) في قوله المعروفة التي ذكر فيها أنه عندما دخل الرسول ﷺ المدينة بعد نجاح هجرته: "أضاء منها كل شيء، وعندما مات ﷺ أظلم فيها كل شيء". وهذا على العكس من مكة التي تسلك منها المسلمون هارين بدينهم، فأظلم فيها كل شيء، ولم يبق فيها إلا الطغيان، والنزوع إلى الحرب. فلما فتحها الرسول ﷺ انبعث فيها النور، وأضاءت الكعبة، وجاء الحق وزهق الباطل، وأصبحت مكة قلعة الإسلام الأولى.

إن هذا المعنى للهجرة يجب أن يبقى فوق كل العصور؛ لأنه اتصل بنبي الرحمة في كل العصور وكل الأمكنة، وأصبح - بالتالي - صالحاً لكل زمان ومكان، صلاحية كل حقائق الإسلام الثابتة. ولئن كنا نؤمن بأنه "لا هجرة بعد الفتح" (متفق عليه) كما قال الرسول ﷺ، فإننا يجب أن نؤمن في الوقت نفسه ببقية الحديث، وهو قول الرسول: "ولكن جهاد ونية"، وهذا يعني أن الهجرة بعد مرحلة الحجرة الأولى قد أخذت بعداً اصطلاحياً جديداً. ففي البعد الأول كانت الهجرة مرتبطة بمكان هو المدينة، ولكنها بعد ذلك أصبحت مطلقة من المكان، فهي إلى أي مكان شريطة أن يكون "الجهاد والنية" هما الهدفين المغروسين في النفس. فهما - أي الجهاد والنية - قد انفصلا عن قيد وحدة المهجر (المدينة) الذي كان في صدر الدعوة، وأصبحا صالحين في كل العالم بمشيان مع رجال الدعوة والبلاغ، وبضمنان سلامة الأعمال وارتفاعها على المنافع الاقتصادية أو الظروف السياسية.

الهجرة والتكافل الإيماني

وعندما يستقر هذا المعنى في النفس نستطيع أن نطمئن إلى أن أبطال الدعوة والبلاغ سينشغون في كل مكان يحلون فيه حديقة جديدة للإيمان، وتاريخاً جديداً يبدأ كأشعة الشمس في الصباح، ثم ينساب عبر كل زمان متطلقاً إلى مساحة جديدة في الأرض. وعلى المسلمين إذن - عندما يكونون في أرض المهجر - أن يسارعوا إلى الالتحام ببعضهم، وتكوين مجتمع إيماني يقوم على

القلب اليقظ

ما أعظم القلب اليقظ،
إنه يرى في كل شيء آية وعلامة؛
في القطرات الهاطلات،
وفي الألسنة الصامتات،
وحتى في الأحجار الجامدات...
يا ويحك إذا غفل قلبك،
تبقي سجين دنياك،
وينقلب ربيعك خريفًا مخيفًا،
ونسيمك عاصفةً مدمرةً،
فانتظر عندها الطوفان...

"المؤاخاة" التي ترتفع فوق الأخوة، وهي مستوى خاص فوق أخوة الإيمان التي هي مستوى عام، وأن يتكافلوا مع بعضهم تكافلاً مادياً ومعنوياً، تحقيقاً لقوله تعالى ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ (المائدة: ٢) وقوله أيضاً ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر: ٣).

والتكافل "المادي" يعني التعاون على ضمان الحد الأدنى المطلوب للحياة لكل أخ مسلم، طعاماً أو شرباً أو علاجاً أو تعليمًا أو كساءً. والتكافل "المعنوي" هو التعاون على ضمان التزام "الأخوة" في الإسلام بأداء "الفرائض" والبعد عن "المأثم"، وتفعل وتطيع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في إطار البيئة التي يعيشون فيها وبالأساليب المناسبة لها. وعليهم أيضاً أن يبنوا "مسجداً" يضم الرجال والنساء والأطفال، مهما يكن مستواه متواضعاً. فقد حذرنا الرسول من وجود عدد -مهما يكن قليلاً- من المسلمين لا تقام الجماعة فيهم، كما أن "المسجد" سيكون محور لقاءاتهم وتعارفهم وتكافلهم المادي والمعنوي. ومن المسجد ينطلقون إلى صور من التكامل فيما بينهم تأخذ طابعاً علمياً ومؤسسياً يجعل لهم قيمة وتأثيراً وإشعاعاً في مهجرهم الجديد. لقد أخبرنا الرسول ﷺ أن مما فضل به على بقية الأنبياء أن الأرض جعلت له مسجداً. وقد حقق المسلمون السابقون العظماء "مسجدة الأرض" في كل الأرض التي هاجروا إليها، فهل يمكننا أن نستأنف المسيرة ونخذوا حذوهم.

فلعل الأرض تتخلص من الغيوم السوداء المتلبدة وتعود مسجداً طهوراً. ولعل الله يجري على أيدينا وأيدي المستخلفين من بعدنا هراً جديداً للإيمان، وتاريخاً جديداً تتعاقب فيه راية الوحي مع العلم، والحق مع القوة، ويسود العدل الشامل والرحمة المحمدية العالمية كل الكون... وما ذلك على الله بعزيز! ■

(*) أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية / مصر.

الهوامش

(١) الاستيعاب لابن عبد البر، ٥٩٧/٢.

(٢) سنن البيهقي الكبرى، ١١٨/٩.



مأساة الأندلس وموقف العثمانيين

أورخان محمد علي*

للأسبان القضاء على آخر دولة إسلامية في الأندلس وهي دولة بني الأحمر في غرناطة والتي كان يحكمها آنذاك أبو عبد الله محمد وامتدت مدة حكمه عشر سنوات (١٤٨٢ - ١٤٩٢م).

العثمانيون والانتصار للأندلس

والحقيقة أنه كان من المتوقع انتهاء حكم مسلمي الأندلس قبل هذا التاريخ بمئات الأعوام لولا المساعدات الخارجية التي كانت تأتيهم من الدول الإسلامية في شمالي أفريقيا. فقد قامت دولة "المرايطين" بنجدتهم ضد "ألفونسو" السادس ملك قشتالة، ثم جاءت مساعدات دولة "الموحدين" بعد ذلك وبقيت أسرة الموحدين في الأندلس حتى انتصار ألفونسو الثامن عليها في معركة "نافاس دي طولوسا".

ولكن الوضع تغير في أواخر عمر دولة بني الأحمر في غرناطة، فلم تكن هناك دول إسلامية قوية في شمالي أفريقيا، بل دول ضعيفة، وفي أحيان كثيرة دول متعاونة مع الإسبان والفرنسيين

هناك أسئلة حائرة تجول في أذهان العديد من المثقفين في العالم العربي حول التاريخ العثماني ومن أهمها سؤال: "لماذا لم تقم الدولة العثمانية بمساعدة مسلمي الأندلس عندما داهمهم الخطر الإسباني الماحق؟ ألم يكن في وسع الدولة العثمانية -وهي في أوج قوتها- الحيلولة دون وقوع تلك المأساة المروعة لمسلمي الأندلس. لتتناول هذا الموضوع بإيجاز.

من المعلوم لدى الجميع أن تفرق المسلمين في الأندلس إلى دول طوائف أضعفهم، وأن العديد من حكام هذه الدول الصغيرة بدؤوا يستعينون بالإسبان ضد الحكام الآخرين من المسلمين، وهكذا بدأت القصة الأليمة لأفول شمس الإسلام من سماء الأندلس. وبينما كان المسلمون غارقين في خضم الفرقة والشقاق، خطا الإسبان خطوة مهمة في مضمار الوحدة عندما تزوج "فرديناند" ملك أراغون من "إيزابيلا" ملكة قشتالة، وأصبح الهم الوحيد

هـ



مثل دولة بني حفص في تونس والمريتين في المغرب. كما قام الأسبان بسد مضيق جبل طارق ليمنعوا وصول أي نجدة من مسلمي شمالي أفريقيا إلى الأندلس. فلم يبق أمام مسلمي الأندلس سوى الاستنجاد بأقوى دولتين إسلاميتين آنذاك وهما الدولة العثمانية في آسيا الصغرى، ودولة المماليك في مصر، فأرسلوا وفدا لكل منهما طلبا لنجدهم.

الوفد الأندلسي في إسطنبول

وصل الوفد الأندلسي إلى "إسطنبول" عاصمة الدولة العثمانية التي كان على رأسها السلطان بايزيد الثاني ابن السلطان محمد الفاتح، وقام رئيس الوفد بتسليم رسالة استغاثة مؤثرة حفظها التاريخ من مسلمي الأندلس إلى السلطان، نُورِد هنا مقدّماتها:

"الحضرة العلية وصل الله سعادتها، وأعلى كلمتها، ومهد أقطارها، وأعز أنصارها، وأذلّ عدائها. حضرة مولانا وعمدة ديننا ودينانا، السلطان الملك الناصر، ناصر الدنيا والدين، وسلطان الإسلام والمسلمين، قامع أعداء الله الكافرين، كهف الإسلام، وناصر دين نبينا محمد عليه السلام، مُحيي العدل، ومنصف المظلوم ممن ظلم، ملك العرب والعجم، والترك والديلم، ظل الله في أرضه، القائم بسنته وفرضه، ملك البرّين، وسلطان البحرين، حامى الدمار، وقامع الكفار، مولانا وعمدتنا، وكهفنا وغيثنا، لا زال ملكه موفور الأنصار، مقرونا بالانتصار، محلّد المآثر والآثار، مشهور المعالي والفحار، مستأثرا من الحسنات بما يضاعف الأجر الجزيل، في الدار الآخرة والثناء الجميل، والنصر في هذه الدار، ولا برحت عزماته العلية محتصة بفضائل الجهاد، وبجردة على أعداء الدين من بأسها، ما يروي صدور السفح والصفاح، وألسنة السلاح بأذلة نفائس الذخائر في المواطن التي تألف فيها الأخايير مفارقة الأرواح للأجساد، سالكة سبيل الفائزين برضا الله وطاعته يوم يقوم الأشهاد".

وكان هناك مع هذه الرسالة أبيات طويلة من شعر مؤثر للشاعر أبي البقاء صالح بن شريف يصف مأساة المسلمين في الأندلس وغدر الأعداء بهم:

سلام عليكم من عبيد تغلّفوا
بأندلس بالغرب في أرض غربة
أحاط بهم بحرٌ من الردم زاجر
وبحر عميق ذو ظلام ولجة
سلام عليكم من عبيد أصابهم
مصاب عظيم يا لها من مصيبة
سلام عليكم من شيوخ تمزّقت

شيوخهم بالتتف من بعد عزة
سلام عليكم من وجوه تكشف
على جملة الأعلاج من بعد سُترة
سلام عليكم من بنات عواتق
يسوقهم اللبّاط قهرا لخلوة
سلام عليكم من عجائز أكرهت
على أكل خنزير ولحم جيفة

وبعد هذه المقدمة المؤثرة تشرح القصيدة غدر الأعداء الإسبان وكيف يقومون بتنصير المسلمين قهرا وجبرا وكيف أن المسلمين جاهدوا ولكنهم قلة أمام جموع الأعداء:

غُدرنا ونُصّرنا وبُذّل ديننا
ظلمنا وعمولنا بكل قبيحة
وكنّا على دين النبي محمد
نقاتل عمال الصليب بنية
ونلقى أموراً في الجهاد عظيمة
بقتل وأسْر ثم جوع وقلة
فجاءت علينا الروم من كل جانب
بجد وعزم من خيول وعدة
فكنا بطول الدهر نلقى جموعهم
فنقتل فيها فرقة بعد فرقة
وفرسانها تزداد في كل ساعة
وفرساننا في حال نقص وقلة
فلما ضعفنا خيموا في بلادنا
ومالوا علينا بلدة بعد بلدة
وجاءوا بأنفاظ عظام كثيرة
تهدم أسوار البلاد المنيعة
وشدوا عليها الحصار بقوة
شهورا وأياما بجد وعزيمة
فلما تفانت خيلنا ورجالنا
ولم نر من إخواننا من إغاثة
وقلت لنا الأقوات واشتد حالنا
أحطناهم بالكراه خوف الفضيحة
وخوفا على أبنائنا وبناتنا
من أن يؤسروا أو يقتلوا شر قتلة
على أن نكون مثل من كان قبلنا
من الدجن من أهل البلاد القديمة

بفرض ضريبة على الحجاج العثمانيين. وفي عهد السلطان بايزيد الثاني أبدى المماليك رغبتهم في ضم منطقة "جوقور أوه" العثمانية إلى الأراضي السورية التي كانت تحت حكمهم. كما حدثت مشاكل أخرى بين الدولتين لا تنطرق إليها هنا. والخلاصة أن الوفد عندما جاء إلى السلطان كانت الجيوش العثمانية في حرب مع جيوش المماليك التي تقدمت فعلا إلى منطقة "جوقور أوه".

مشكلة الأمير "جَم"

كانت الدولة العثمانية تعيش مشكلة الأمير "جَم" (الأخ الأصغر للسلطان بايزيد) الذي شق عصا الطاعة على أخيه السلطان مطالباً بالعرش لنفسه. وحدثت معارك بين الأخوين انتهت بانتصار السلطان بايزيد وهرب الأمير جَم إلى مصر حيث استقبل من قبل حاكم مصر بحفاوة، وكان هذا عاملاً مضافاً لزيادة التوتر بين البلدين مما أدى إلى إشعال فتيل الحرب بينهما. ولم تقف مشكلة الأمير جَم بإحداث التوتر بين هاتين الدولتين بل إن الأمير جم عندما أسر من قبل القراصنة وهو على ظهر سفينة وتم بيعه إلى البابا، أصبح ورقة تهديد في يد الدول الأوروبية والبابا ضد الدولة العثمانية، وأدى إلى توتر العلاقات بين الدول الأوروبية وبين الدولة العثمانية، وإلى تحالف صليبي جديد من البابا "جوليس الثاني" وفرنسا والمجر وجمهورية البندقية ضد الدولة العثمانية مما حدا بالدولة العثمانية إلى تركيز اهتمامها على الخطر القادم إليها من أوروبا.

خطورة الدولة الصفوية

كانت الدولة الصفوية تحاول نشر المذهب الشيعي في الأناضول وترسل المئات والآلاف من شباب التركمان الشيعة - بعد تدريبهم - إلى الأناضول لهذا الغرض. وكانت نتيجة هذه الجهود حدوث حركات عصيان مسلحة قادها الشيخ جُنيد أولاً ومن بعده ابنه حيدر، أي كانت هناك قلاقل كبيرة في الأناضول، ولم تتخلص الدولة العثمانية من هذه القلاقل ومن خطر الدولة الصفوية إلا في عهد السلطان سليم (ابن السلطان بايزيد الثاني). إذن فالدولة العثمانية كانت في ضائقة شديدة وكانت في حرب فعلية مع المماليك من جهة، وفي مشاكل كبيرة مع الدول الأوروبية حيث نرى أنه بعد سنوات قليلة اضطرت الدولة العثمانية لإعلان الحرب على المجر وعلى بولندة. كما اتفقت بولندة والمجر وليتوانيا ضد الدولة العثمانية وأعلنت عليها الحرب، كما كانت تعاني من وجود قلاقل وحركات تمرد وعصيان في الداخل. لا نريد الخروج عن الموضوع وإيراد تفاصيل جانبية، ولكن كان من الضروري إلقاء نظرة على وضع الدولة العثمانية آنذاك.

ثم يقول الشاعر بأنهم أصبحوا ضحية الغدر وعدم الوفاء بالوعود والبنود التي بلغت خمسة وخمسين بنداً في عقود الصلح، من أنهم سيستمرون في إقامة شعائرهم الإسلامية بكل حرية، ولكنهم عندما دخلوا تحت حكمهم نسوا تلك الوعود والعهد وتركوا المسلمين أمام خيارين لا ثالث لهما إما التنصر أو القتل. ثم يستغيث الشاعر بسلطان الدولة العثمانية، ويعقد آماله عليه:

فها نحن يا مولاي نشكو إليكم
فهذا الذي نلناه من شر فرقة
عسى ديننا يبقَى لنا وصلاتنا
كما عاهدونا قبل نقض العزيمة
وإلا فيجلونا جميعاً عن أرضهم
بأموالنا للغرب دار الأحبة
فأنتم بحمد الله خير ملوكنا
وعزتكم تعلو على كل عزة
وثم سلام الله قلت ورحمة
عليكم مدى الأيام في كل ساعة

دعا السلطان بايزيد الثاني الصدر الأعظم والوزراء والقواد إلى مجلس اجتماع طارئ لبحث الموقف وما الذي تستطيع الدولة العثمانية تقديمه في تلك الظروف.

بحث المشاركون في المجلس الظروف التي تمر بها الدولة العثمانية آنذاك، ونوع ومدى المساعدة التي تستطيع الدولة تقديمها لمسلمي الأندلس. ولسوء حظ مسلمي الأندلس فقد كانت الدولة العثمانية تمر بظروف قاسية جداً، كما كان بعد المسافة، وعدم وجود طريق بري مباشر إليها يزيد من حدة المشكلة ويعقدها.

الظروف الصعبة للدولة العثمانية

نستعرض هنا باختصار شديد الظروف الصعبة التي كانت تعيشها الدولة العثمانية آنذاك:

العثمانيون والمماليك

كانت الدولة العثمانية آنذاك في حرب مع دولة المماليك في مصر، بسبب نزاعات بدأت من عهد السلطان محمد الفاتح (والد السلطان بايزيد الثاني). فقد عرض السلطان محمد الفاتح على أشرف سيف الدين حاكم دولة المماليك في مصر (الذي كانت مملكة الحجاز ونجد تحت سيطرته) قيام الدولة العثمانية بتعمير وإصلاح قنوات الماء في الحجاز دون مقابل تيسيراً للحجاج، فقبل برفض فظ من قبله. ومما زاد من التوتر بين الدولتين قيام المماليك



"بايزيد" يفعل ما يستطيع

بعد دراسة لكافة الظروف الداخلية والخارجية قرر السلطان بايزيد إرسال قوة بحرية تحت قيادة "كمال رئيس" على وجه السرعة. كان ذلك في عام ٨٩٢هـ / ١٤٨٧م. أي قبل سقوط غرناطة بخمس سنوات. وكانت الدولة العثمانية بعملها هذا تعلن الحرب على عدة دول مسيحية في أوروبا؛ كانت تعلن الحرب على قسطنطينية وعلى آراغون وعلى نابولي وعلى صقلية وعلى البندقية؛ أي أن الدولة العثمانية على الرغم من مشاكلها الكثيرة -التي ذكرنا أهمها- كانت الدولة الإسلامية الوحيدة التي مدت يد العون لمسلمي الأندلس على قدر طاقتها، ودخلت من أجلهم في حالة حرب مع دول عدة؛ بينما توقفت عن ذلك الدول الإسلامية الموجودة في شمالي أفريقيا والتي كان بإمكانها من الناحية الجغرافية لمسلمي الأندلس كالدولة الحفصية في تونس والدولة الوطاسية في المغرب.

قام "كمال رئيس" بضرب سواحل جزر جاربيا ومالطا وصقلية وساردونيا وكورسيكا، ثم ضرب سواحل إيطاليا ثم سواحل إسبانيا، وهدم العديد من القلاع والحصون المشرفة على البحر في هذه السواحل. وقام أحيانا بإنزال جنوده في بعض السواحل لهدم تلك القلاع. ولكنه لم يكن يستطيع البقاء طويلا، لأن الحرب البحرية لا تكفي للاستيلاء على المدن ولاسيما المدن الداخلية البعيدة عن البحر، فلا بد من مشاركة القوات البرية التي تستطيع التوغل في الداخل وتثبيت وإدامة السيطرة على المدن المفتوحة. ولم يكن هذا ممكنا آنذاك، لبُعد الشقة بين الأندلس وبين الدولة العثمانية وكذلك بين مصر والأندلس. ولو صرفت الدولة العثمانية كل طاقتها وحاولت الوصول براً إلى الأندلس (وهذا ما لا يتوقعه عاقل) لكان عليها محاربة العديد من الدول الأوروبية لعشرات الأعوام. هذا علما بأن الدول الأوروبية كانت قد قطعت كل صلة لمسلمي الأندلس مع البحر الأبيض المتوسط، كما سدّوا مضيق جبل طارق ليمنعوا وصول أي نجدة إليهم من الدول الإسلامية. وقام "كمال رئيس" بقصف بعض سواحل تونس بسبب كون الدولة الحفصية الحاكمة في تونس في حلف مع الأسبان ومع فرنسا ضد إخوانهم من مسلمي الأندلس.

وكم كان من المؤسف أن هذه القوة البحرية العثمانية اضطرت أخيراً إلى مواجهة الدولة الحفصية في تونس لكونها تقوم بمساعدة الفرنسيين. ولكون الدولة العثمانية في حرب مع المماليك فقد وقعت هذه القوة البحرية بين نارين، لذا لم تؤد هجمات هذه القوة البحرية إلى نتائج ملموسة. وفي عام

٨٩٧هـ / ١٤٩٢م استسلمت مدينة غرناطة وانتهى حكم المسلمين في الأندلس. ولكن هذه القوة البحرية قامت بنقل ما يقارب من ٣٠٠ ألف من المسلمين التاركين بيوتهم والهائمين على وجوههم من الأندلس، إلى المغرب وإلى الجزائر.

أما الوفد الأندلسي الثاني المرسل إلى دولة المماليك في مصر فلم يحصل على أي نتيجة أيضاً حيث إن مصر بعيدة عن الأندلس، ويحتاج إنقاذ هؤلاء المسلمين إلى قوة برية. كما كانت في حرب مع الدولة العثمانية كما ذكرنا.

كان الأشرف سيف الدين قايتباي (١٤٦٨ - ١٤٩٦م) هو الذي يحكم دولة المماليك آنذاك، فلم يجد وسيلة لنصرة مسلمي الأندلس سوى إرسال وفود إلى البابا وإلى الأسبان ليقول لهم أن هناك العديد من المسيحيين يعيشون في مصر وفي سورية وأنهم يتمتعون بكامل حرياتهم الدينية ولا يتعرض لهم أحد، وليحذرهم بأنه سيقوم بقتل جميع المسيحيين وإجبارهم على اعتناق الإسلام إن قام الأسبان بقتل المسلمين أو إجبارهم على التنصر. ولم يهتم الأسبان ولا البابا بهذا التحذير الذي عدوه مجرد تخويف لأنهم يعلمون أن الدين الإسلامي يمنع إكراه أحد على ترك دينه. وقد ادعى الأسبان لوفد مصر أن المسلمين تنصروا بماء إرادهم ولم يجبرهم أحد على هذا. وجاءوا بشهود زور تم تهديدهم وتخويفهم فشهدوا بذلك.

وقد سجل أبو البقاء في شعره هذه الحادثة وذكر أسماء المدن التي عذب أو أحرق أهلها أو ذبحوا بالسيف قائلاً:

فسل وحرا عن أهلها كيف أصبحوا
أسارى وقتلى تحت ذل ومهنة
وسل بلفيقا عن قضية أمرها
لقد مَزَقُوا بالسيف من بعد حسرة
وضيافة بالسيف مزق أهلها
كذا فعلوا أيضاً بأهل البشارة
وأندرش بالنار أحرق أهلها
بجامعهم صاروا جميعاً كفحمة

وهكذا بقي مسلمو الأندلس وحدهم في الميدان وتجرعوا الآلام وبادت دولتهم الزاهرة جزاء تفرقهم إلى طوائف عديدة. فجروا على أهلكهم وبلدهم تلك النهاية المروعة التي ستبقى من أكثر المآسي المروعة في التاريخ الإنساني. ■

*) كاتب وباحث تركي



كالشمعة...

عليك أن تشتعل وتذوب لتنير الدروب للآخرين...



العقيدة الإسلامية بين جمال القرآن وتقسيمات علم الكلام

أ.د. فريد الأنصاري *

ل

كان المسلمون عندما يتلقونها بعبارتها القرآنية الجليلة، يتفاعلون معها تفاعلاً عجبياً؛ إذ يتحولون بسرعة وبعمق كبير من بشر عاديين، مرتبطين بعلائق التراب، إلى خلائق سماوية تنافس الملائكة في السماء، وما هم إلا بشر يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق. ولذلك حقق الله بهم المعجزات في الحضارة والتاريخ. إن الكيمياء الوحيدة التي كانوا يتفاعلون بها هي "لا إله إلا الله"، لكن ليس كما صورها علم الكلام بشق مدارس ومذاهبه، وإنما كما عرضها القرآن آيات بينات ومحكمات.

كلمة البدء في الإسلام هي "لا إله إلا الله"، وهي كلمة سرٌّ، سر في غاية اللطافة والبهاء. نعم، كل المسلمين يقولونها، ولكن القليل منهم هم الذين يتذوقونها حقاً؛ ذلك أن انصرافهم إلى التصورات الكلامية في مجال العقيدة قد صرفهم عن فضائها الجميلة ومواجهتها الجليلة.

الإسلام عقيدة تربوية في الأساس

إن عقيدة الإسلام لم تكن في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية إلا لمسة تربوية ذات أثر روحي عميق على الوجدان والسلوك. وقد

المسلمين اليوم، فلا يرون في الدين إلا خشونة وحزونة. هذا التحشيب في الأقوال والفعال، الذي سيطر على تدين كثير من الناس اليوم؛ إنما كان لأسباب سياسية واجتماعية مختلفة، ليس هذا مجال بيانها. ولا يجوز أبداً أن تكون مسوغاً للانحراف عن بهاء الدين وجماله. وإنما أنزله الله ليكون جميلاً، تتنوّقه القلوب، وتتعلق به الأنفس؛ فلا تستطيع منه فكاكاً، فتُسَلِّمُ -بجذبه الخفي وإغرائه البهي- لله رب العالمين.

"لا إله إلا الله" - إذ يقولها العبد مستشعراً دلالتها اللطيفة - كلمة "قلبية" مدارها على وصف حال، والاعتراف بذوق صفات الكمال والجلال. إنها تعبير عن الخضوع الوجداني التام لله. نعم، قلت "الوجداني" لأنها -بساطة- كذلك وردت في سياقها القرآني الأصيل.

ولو تأملت هذه العبارة العظيمة في اللغة، لوجدتها تقوم على لفظتين أساسيتين، هما مدار الإسلام كله: "الله" و "الإله". فأما كلمة: "الله" فهو لفظ الجلال، الاسم العَلَم على الذات الإلهية، الاسم الجامع لكل الأسماء الحسنى والصفات الإلهية العُلَى. ولفظ "الله" فرد في اللغة، فلا يجمع ولا يتعدد.

وأما كلمة "الإله" فهو لفظ وصف، يدل على معنى شعوري قلبي؛ ولذلك فهو يتعدد، إذ يجمع على "آلهة". وأما باقي العبارات في "لا إله إلا الله" فهي "لا" النافية، و "إلا" الحاصرة، تقومان بدور البناء والتركيب اللغوي؛ للنفي والإثبات، الذي يربط نوع العلاقة في قلب المؤمن بين الوصف "إله" والاسم "الله". وحقيقة تلك العلاقة هي ما يهمننا في هذا البحث. إنها علاقة تملأ الوجدان بما يفيض به قلب العبد المعبر بها حقاً وصدقاً من الاعتقاد والشعور تجاه مولاه جلّ علاه.

ذلك أن كلمة "إله" في أصل الاستعمال اللغوي كلمة قلبية وجدانية، كما ذكرنا. أعني أنها لفظ من الألفاظ الدالة على أحوال القلب كالحب والبغض والفرح والحزن والأسى والشوق والرغبة والرغبة... إلخ. أصلها قول العرب: "أله الفصيل - يألُه - ألهًا" إذا ناح شوقاً إلى أمه. والفصيل ابن الناقة إذا فطم، وفصل عن الرضاع، يحبس في الخيمة وترك أمه في المرعى، حتى إذا طال به الحال ذكر أمه وأخذ الشوق والحزن إليها -وهو آنذ حديث عهد بالفطام- فراح وأرغى رغاء أشبه ما يكون بالبكاء، فيقولون: "أله الفصيل" فأمه إذن ههنا هي "إلهه" بالمعنى اللغوي، أي ما يَشُوقُه. ومنه قول الشاعر: "ألهتُ إليها الرّكائبُ وُقِفَ"

جاء في اللسان: اسم "الله": تفرد سبحانه بهذا الاسم، لا يشركه فيه غيره، فإذا قيل: "الإله" انطلق على الله سبحانه وعلى

إن التقسيمات الكلامية للعقيدة الإسلامية التي أملتتها ضرورة حجاجية حيناً، وضرورة تعليمية حيناً آخر، ليست ذات جدوى في عالم التربية الإيمانية؛ خلّوها من روحها الرباني وسرها التعبدية، الذي لا تجده إلا في كلمات القرآن وأحرفه: "من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها. لا أقول "الم" حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف" (رواه الترمذي). ثم إن التعبير عن حقيقة الذات الإلهية لا يكون على كمال صدقه، جلالاً وجمالاً، إلا إذا كان بما عبر الله به عن ذاته سبحانه وصفاته. وما كان للنسي المحدود أن يحيط وصفاً وعلماً بالمطلق غير المحدود. ومن هنا كان التوقيف في مجال التعبير العقدي في الإسلام.

تفعيل العقيدة

كثير من الناس يتكلم في العقيدة اليوم ولكن قليلاً منهم يتفاعل معها؛ لأن العلم الجدلي ما كان له أن يؤتي ثماراً قلبية، وهو قد أنتج أساساً لإشباع رغبات العقل المماري، لا لإشباع حاجات القلب الساري. وقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يخاطب بالعقيدة الإيمانية العقول، خطاباً ينفذ من خلالها إلى القلوب، حيث تستقر بذرة، تنبت جنات وأشجاراً.

إن السر الذي تتضمنه عقيدة "لا إله إلا الله" والذي به غيرت مجرى التاريخ مرات ومرات والذي به صنعت الشخصيات التاريخية العظيمة في الإسلام، إنما يكمن في "جمالها". الجمال، ذلك الشيء الذي لا يدرك إلا بحاسة القلب. إنه إحساس: "كم هو جميل أن يكون المرء مسلماً!". ودون هذا الإدراك اللطيف للدين، إدراكات أخرى من أشكال التدين، لا تغني من الحق شيئاً. لقد ضاع صفاء الدين وجماله السماوي في غبار التأويلات ورسوم التقسيمات. وقد ذم قوم "الكلام"، لكنهم لم يدركوا أنهم في خضم الصراع المذهبي ردوا وقسموا "فتكلموا"، وسقط عنهم بذلك بهاء الدين وجماله وهم لا يشعرون. أو -على الأقل- لم يترك ذلك في الأتباع لمسات الجمال، وأذواق الصفاء في السلوك الذي يصنفون به على أنهم "مسلمون". فكانت التصورات في واد، والتصرفات في واد آخر. وذلك لعمرى هو الخسران المبين. إن القرآن الكريم والسنة النبوية يقولان لنا حقيقة جليلة عظيمة، لم يستطع أن يوصلها إلينا علم الكلام: هي أن عقيدتنا جميلة.

عقيدة هالية

ولكم هو مؤسف حقاً أن يضيع هذا المعنى من تدين كثير من

ما يعبد من الأصنام. وإذا قلت "الله" لم ينطلق إلا عليه سبحانه وتعالى. وقيل في اسم الباري سبحانه: إنه مأخوذ من أَلِه - يَأْلُه: إذا تَحَيَّرَ، لأن العقول تَأْلُه في عظمته. وَأَلِه يَأْلُه أَلْهًا: أي تَحَيَّرَ، وأصله وَلِه يَوْلُه وَلَهًا. وقد أَلِهْتُ على فلان: أي اشتد جزعي عليه مثل وَلِهْتُ. وقيل: هو مأخوذ من أَلِه يَأْلُه إلى كذا، أي: لجأ إليه؛ لأنه سبحانه الْمَفْرُغُ الذي يُلْجَأُ إليه في كل أمر^(١). إذ "الإله" في هذا السياق اللغوي هو: ما يَشُوقُ القلب، ويأخذ بمجامع الوجدان، إلى درجة الانقياد له والخضوع. قال عز وجل: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ (الجن: ٢٢).

والراجح فعلاً أن "أله" هو من "وله" ومنه اشتق الاسم العلم "الله"؛ لأن مدار كلا المادتين على معاني القلب، فأبدلت من الواو همزة. قال الراغب الأصفهاني: "أله فلان - يأله: عبد. وقيل: أصله ولاه، فأبدل من الواو همزة، وتسميته بذلك لكون كل مخلوق وإلهاً نحوّه، إما بالتسخير فقط كالجملات والحيوانات، وإما بالتسخير والإرادة كبعض الناس، ومن هذا الوجه قال بعض الحكماء: الله محبوب الأشياء كلها"^(٢).

و"الولة": هو الجنون الحاصل بسبب الحب الشديد، أو الحزن الشديد، يقال: امرأة وولة: إذا أحببت حتى جنت، أو إذا ثكلت؛ فحزنت حتى جنت. قال ابن منظور: "الولة: الحزن. وقيل هو ذهاب العقل والتخير من شدة الوجد، أو الحزن أو الخوف. والولة: ذهاب العقل لفقدان الحبيب وناقة ميلاده: هي التي فقدت ولدها فهي تله إليه. يقال: وَلِهْتُ إليه تله أي تحن إليه وناقة وإله: إذا اشتد وجدها على ولدها"^(٣).

عقيدة حب ووجدان

وهكذا فأنت ترى أن مدار المادتين "أله" و"وله" هو على معانٍ قلبية، ترجع في مجملها إلى التعلق الوجداني والامتلاء بالحب، فيكون قول المؤمن "لا إله إلا الله" تعبيراً عما يجده في قلبه من تعلق بربه تعالى، أي لا محبوب إلا الله، ولا مرهوب إلا الله، ولا يملأ عليه عمارة قلبه إلا قصد الله. إنه أشبه ما يكون بذلك الفصيل الصغير الذي ناح شوقاً إلى أمه، إذ أحس بألم الفراق ووحشة البعد. إن المسلم إذ "يشهد" ألا إله إلا الله، يقر شاهداً على قلبه أنه لا يتعلق إلا بالله رغبة ورهبةً وشوقاً ومحبةً. وتلك لعمرى "شهادة" عظيمة وخطيرة، لأنها إقرار واعتراف بشعور، لا يلدرى أحد مصداق ما فيه من الصدق إلا الله، ثم الشاهد نفسه، ومعاني القلب لا تحد عبارات ولا تحصرها إشارات. ومن

هنا كانت شهادة "ألا إله إلا الله" من اللطافة بمكان، بحيث لا تدرك على تمام حقيقتها إلا ذوقاً.

قال ابن القيم رحمه الله: "إن محبة العبد لربه فوق كل محبة تقدر، ولا نسبة لسائر المحاب إليها، وهي حقيقة لا إله إلا الله!"^(٤) إلى أن يقول في نص نفيس تشد إليه الرحال: "فلو بطلت مسألة المحبة لبطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان، ولتعطلت منازل السير إلى الله. فإنها روح كل مقام ومترلة وعمل. فإذا خلا منها فهو ميت لا روح فيه. ونسبتها إلى الأعمال كنسبة الإخلاص إليها، بل هي حقيقة الإخلاص، بل هي نفس الإسلام. فإنه الاستسلام بالذل والحب والطاعة لله. فمن لا محبة له لا إسلام له البتة، بل هي حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله. فإن "الإله" هو الذي يأله العباد حباً وذكلاً، وخوفاً ورجاءً، وتعظيماً وطاعة له، بمعنى "مألوّه": وهو الذي تأله القلوب. أي تحبه وتذل له فالمحبة حقيقة العبودية"^(٥).

معنى الإسلام

ذلك أن معنى "الإسلام" هو الخضوع لله رب العالمين، والاستسلام لأمره تعالى. إنه الاعتراف الوجداني، أي التعبير العملي عن الشعور الحقيقي الذي يلامس القلب، عندما يدرك العبد و"يجد" أنه "عبد" لسيد هذا العالم العظمي! وحقيقة كون المسلم عبداً هي الحقيقة التي تعيب عن أكثر المسلمين، فيحدث بسبب ذلك الانحراف بشئ أُلوانه وأشكاله.

إن "العبد" مسلوب الإرادة. ليس بالمعنى الكلامي ولكن بالمعنى الوجداني، أعني أن تجرد الشعور بأنك أيها المسلم مملوك لله الواحد القهار، تدور في فلك العبودية والخدمة كما تدور الكواكب في الأفلاك. ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (الزمر: ٦٠). وتلك هي مدارات اللفظ (عبد) في اللغة. إنها لا تخرج عن معاني الذلة والخضوع والخنوع والانقياد، كما تنقاد الأنعام المذللة لمالكها رغبة ورهبةً، انقياداً لا تشج فيه ولا تقلت.

والعبد لا يكون إلا في باب الخدمة بين يدي مولاه، واقفاً على العتبة ينتظر الأمر والنهي بشوق المحب، ليبادر إلى التنفيذ دون سؤال: علام ولمه؟ ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٣). إنه الرب المحبوب الأعظم، المرغوب المرحوب، رب الكون والخلق أجمعين. يُمكنك أن تُعرّف عقيدة الإسلام في نهاية المطاف، فتقول إنها ميثاق المحبة بين الله وعباده! أو هي دستور السلام.



وحينما نقول "المحبة" فهي بمفهومها القرآني الجامع المانع، لا ما ذهبت إليه طوائف من الغلاة من هذا الاتجاه أو ذاك، ممن قالوا بها فأبطلوا كل منازل الإيمان من خوف ورجاء. فانتهى بهم الأمر إلى دعاوى عريضة بتشددون بها، ما أنزل الله بها من سلطان. كلا، بل لا تقوم المحبة بقلب العبد الصادق إلا على جناحي الخوف والرجاء، وما تفرع عن ذلك من معاني الرغب والرهب. والقرآن العظيم والسنة النبوية واضحتان في هذا غاية الوضوح. ولا يزيغ عنهما إلا جاهل أو صاحب هوى. والمحبة الحقيقي الصادق يخاف من الحرمان، ويخشى من العقوبة؛ بقدر ما يرجو ويشناق. فإذا جرد المحبة عن الخوف والرجاء كان من الكاذبين! كيف ورب العالمين يقول عن صفوة من أنبيائه ورسله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (الأنبياء: ٩٠). كيف وهذا محمد رسول الله ﷺ سيد الأولين والآخرين يعلنها في الأمة: "أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له. [وفيه قال:] فمن رغب عن سنني فليس مني" (متفق عليه). ألا وإن أي انحراف عن هذه السبيل لا يكون إلا جهلا بالدين أو زبغا من الضلال المبين.

فعلى هذا الوزان إذن نقول إن عقيدة الإسلام قائمة على المحبة، بل إنها ميثاق المحبة. وبذلك المعنى كانت تفيض بأنوار الجمال ومباهج الجلال. فليس عبثاً أن يقول النبي ﷺ: "إن الله تعالى قد حرم على النار من قال "لا إله إلا الله" يبتغي بذلك وجه الله" (متفق عليه). أكلمة واحدة تلتفظ بها فتدخل الجنة؟ نعم، ولكن، إنها ليست بكلمة ولا كلمات، إنها توجه قلبي وميل وجدائي، إنها مسألة "حب". وإن من أحب الله أحبه الله. إنها حقيقة جميلة وعظيمة. وإن عدم إدراكها ذوقاً ووجداناً قد كان سبباً في تضيق معاني الدين، وانحراف كثير من الناس عن منهاجه المستقيم. ■

(١) جامعة مولاي إسماعيل ورئيس المجلس العلمي بمكناس / المغرب.

الهوامش

(٢) لسان العرب: مادة "أله".

(٣) المفردات في غريب القرآن: مادة "أله".

(٤) لسان العرب: مادة "وله".

(٥) مدارج السالكين لابن القيم، ١٨/٣.

(٦) مدارج السالكين: ٢٦/٣.

أنيين الأرض

لن يستمر هذا الأنيين حتى يوم القيامة،
رب مفاجأة يحببها القدر،
فقد يظهر ليث وهو يزأر،
زئيراً يليق به بين أشجار الغابة،
فتكف الأرض عن النواح،
ويأتي الربيع...

الخط الفاصل بين الإيمان والإلحاد:

البعث بعد الموت

أ.د. محمد بوزغية *



إنَّ حياة الإنسان بعد موته هي الخط الفاصل بين الإيمان والإلحاد، بين التفسير الديني لحقيقة الإنسان الذي يجعل حياته ومصيره معني وغاية وهدفا لقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمن: ١١٥)، وبين التفسير المادي للإنسان الذي لا ينظر إلا إلى غذاء جسده، والذي ستنتهي مسرعة حياته بالموت والفناء. فالإنسان متكوّن من مادة وروح، والروح من سنن الله البديع يجعل للإنسان قيمة إلهية بما يبت من فضيلة ويزرع من خير وينشر من ضياء؛ فتتغير بذلك نظرته للحياة ويرى بعين البصيرة ما وراء النتائج العاجلة من سلوك الناس وتصرفاتهم.

يقول ابن عطاء السكندري في مواظبه: "لو أشرق لك نور اليقين لرأيت الآخرة أقرب إليك من أن ترحل إليها، ولرأيت محاسن الدنيا قد ظهرت كسفة الفناء عليها". ففي المعتقد الديني لا موت إلا في هذه الحياة، فمن فارقتها انتقل إلى حياة خالدة لا موت فيها. ولكن الفارق كبير والبؤن شاسع بين موت وموت؛ فموت المؤمن العارف فوز ونجاة، وموت الجاحد الكافر حرمان وشقاء. دعت جميع الأديان السماوية إلى الإيمان بالبعث والتشور على لسان رسلها وأنبياؤها. فنوح عليه السلام قال لقومه: ﴿وَاللَّهُ أَتَبَّكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ (نوح: ١٧-١٨). وموسى عليه السلام قال في دعوته: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ (طه: ٥٥). وعيسى عليه السلام قال وهو في المهدي: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ (مريم: ٣٣).

ولقد وصف القرآن الكريم نكران عرب الجزيرة عقيدة البعث والنشور عندما قال تعالى على لسان معطلة العرب مثلما سئاهم الشهرستاني في كتابه "الملل والنحل": ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا

الدُّنْيَا تَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (الحاقة: ٢٤).

لقد اقتضت الحكمة الأزلية أن يُنبئ الإنسان بزينة الحياة الدنيا وبالطوى، فكان بذلك عرضة للفسوق والعصيان والغفلة والتسبب والإعراض عن الحق. فأرسل الله إليه رسله وأنزل كتبه، وبيّن له مواقع رضاه وغضبه، وأنّ التعميم لا يدرك بالتعميم، وأنّ أعظم اللذات محجوب بأنواع المكاره، فلم تقو عقول الكثيرين على إنباء الآجل المنتظر بعد فناء الدنيا على هذا العاجل الملموس، بل إن خيالهم لم يتسع لتصور نشر جديد بعد ظلمة القبر وفناء الجسد، وأنا سنموت كما سنام وتبعث كما سنستيقظ، ولا سيما العرب الذين لم يكلفوا قط بشريعة، لوجودهم في فترة من الرسل بين جدّهم إسماعيل ومحمد عليهما السلام.^(١)

البعث في القرآن والسنة

لقد استعمل القرآن الكريم في رده على منكري البعث على اختلاف اتجاهاتهم مختلف البراهين لإقناعهم بأن الساعة حق وأن الله يبعث من في القبور. وتقوم عقيدة البعث على أصول لا بد من اعتبارها في عقيدتنا، وهي:



تؤكد عقيدة البعث على فناء هذه الدنيا وانتفاء أزلية هذا الكون، ويؤكد علماء الفلك حتمية اختلال الأجرام السماوية^(٣). ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمْتَ نَفْسُ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾ (الانفطار: ١-٥).

جاء في كتاب "المعاد" قوله: "إن قانون الديناميكية الحرارية يثبت أن الحرارة ليست دائمة إلى الأبد، وأن يوم انتهائها سيأتي حتماً، والكون يتجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام وينضب فيها معين الطاقة، ويومئذ لن تكون هناك عمليات كيميائية أو طبيعية، وذلك بحكم الانتقال الحراري المستمر من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة. ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية، بحيث تعود الحرارة وترتد من الأجسام الباردة إلى الأجسام الحارة، وعندئذ تقف حركة الحياة ويموت الأحياء"^(٤).

سكرات الموت ونهاية الإنسان

ليس الموت ختاماً لمعنى الحياة وابتداء لحالة أخرى لا شعور فيها ولا إحساس معها، إنما هو مرحلة تحوّل من طور إلى آخر. إن الموت هو الفجيرة الكبرى للجاحدين الذين سيعرفون بعد الموت كل شيء وسيُدركون أنهم كانوا في ضلال بعيد، سيتم ذلك بعد فوات الأوان. تثبت العقيدة الإسلامية أن ما يقع للجسد من فساد لأجهزته وفناؤه لا يؤثر في حقيقة الروح ولا في كيان الإنسان المعنوي.

ولقد عبّر القرآن الكريم عن لحظة الفزع ولحظة خروج الروح من الجسد بسكرة الموت، قال جلّ وعلا: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ (١٩: ٥). وقال ﷺ يوم مفارقتة الدنيا وهو يمسخ وجهه بالماء: "لا إله إلا الله إن للموت سكرات".

وإن أوّل منازل الآخرة هو القبر، فهو يضيق ويتسع ويظلم ويُنور بحسب مكانة صاحبه عند ربه. والأدلة على ذلك كثيرة، منها قوله ﷺ فيما رواه البخاري أنه لما مات أبو سلمة دخل عليه الرسول ﷺ ثم قال: "اللهم اغفر لأبي سلمة وافسح له في قبره ونور له فيه". أما الدليل على سؤال الميت في القبر ما أخرجه مسلم أن النبي ﷺ كان إذا فرغ من دفن ميت وقف عليه وقال: "استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت فإنه الآن يُسأل".

يوجّه القرآن الكريم الأنظار إلى أن الله تبارك وتعالى لم يخلق هذا الكون باطلاً ولغير هدف. يقول جلّ ذكره: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الدخان: ٣٨-٣٩). وبين سبحانه أنه لم يخلق الإنسان عبثاً، قال عزّ جلّ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمن: ١١٥).

تبين العقيدة الإسلامية أن الإنسان له حرية عميقة في كيانهِ، لكنّها ليست حرية الفوضى الخلقية التي تنتهي دائماً بتهديم الإنسان وتمزيق علاقته مع الوجود الخارجي من حوله.

فالحق الذي خلق الله تعالى به الكون يتنافى مع الفلسفة الوجودية المألوفة؛ فليس ثمة عبث كما يرى "ألبيز كامو"، وليس ثمة لامعقوليّة للحياة والوجود كما يرى "كافكا"، وليس ثمة حرية لأخلاقيّة مطلقة من كلّ قيد كما يرى "سارتر"، وليس ثمة تناقضات نفسية لا نهاية لها تنتهي دائماً بالضياح كما يرى "دستوفسكي". ذلك أن الإسلام يستمدّ تجاربه الباطنية من خلال الحقيقة لا الزيف، ومن الاستقامة لا الانحراف، ومن المعرفة لا الضياح^(٥).

وإن ارتباط الوجود الإنساني بمصيره هو النقطة التي تفرق فيها الطرق بين الناس، لا في نظرهم إلى الحياة وفلسفتهم فيها فحسب، بل في أخلاقهم ونمط سلوكهم ومدى إيمانهم. فالإيمان بمصير الإنسان بعد الموت يجعل حياته غاية سامية وهدفاً أعلى. والقرآن الكريم حافل بآيات تُقيم الأدلة على أن الكون ليس مهملاً كما يزعم الملاحدة، بل خلق الخلق بالحق ليكون الابتلاء والاختبار الذي سيعقبه بعث للحساب والجزاء، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الملك: ٢٠).

فالإيمان بالله تعالى يُحقّق المعرفة بالمصدر الأوّل؛ والإيمان بالبعث يُحقّق المعرفة بالمصير الذي ينتهي إليه هذا الوجود؛ وعلى ضوء المعرفة بالمصدر والمصير يمكن للإنسان أن يُحدّد هدفه ويرسم غايته، ويتخذ من الوسائل والدرائع ما يُوصله إلى الهدف ويبلغ به الغاية. ومتى فقد الإنسان هذه المعرفة، فإن حياته سوف تبقى بلا هدف ولا غاية. وحينئذ يفقد الإنسان سموه الروحي ويعيش كما تعيش الأنعام. وهذا هو الانحطاط الروحي المدمر لشخصية الإنسان والمنافي للحكمة الإلهية العليا من هذا الوجود.



المعاد. وما وقع لإبراهيم الخليل عليه السلام لما سأل ربه بقوله: ﴿رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾، وجواب الله تعالى له خير دليل على إعادة الخلق من جديد، قال تعالى: ﴿فَخَذَ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصَرَّهُنَّ إِبْرَاهِيمَ﴾ بمعنى أن يقطعها إبراهيم عليه السلام إلى أجزاء صغيرة بخلط بعضها ببعض خلطاً غير قابل للتجزئة والتميز ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ (البقرة: ٢٦٠).

قال الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: "يميز الله تعالى أجزاء كل طير عن صاحبه ويجمع أجزاء كل واحد منها مستقلاً عن الباقي، فإذا اكتملت لكل طائر هيئته الخاصة به أودع فيه الحياة حتى يطمئن إبراهيم إلى هذه الحقيقة، ويتحقق علمه، وينتقل من معالجة الفكر والنظر إلى بساطة الضرورة بيقين المشاهدة، وانكشاف المعلوم انكشافاً لا يحتاج إلى معاودة الاستدلال ودفع الشبهة عن العقل".^(١)

وهذا المثل القرآني الدقيق صريح الدلالة على أن الموت تفريق للأجزاء، وليس انعداماً لها كما يظن المفكرون الذين استعظموا عودة الحياة الإنسانية بعد انقطاع الخواص وانفصال الشعور عن الجسد. والتصوص القرآنية التي تؤكد إعادة الخلق والبعث والتشور كثيرة وفيرة منها قوله تعالى:

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا * أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْئًا﴾ (مرم: ٦٦-٦٧). ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ (الحج: ٦-٧). ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّا نَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (فصلت: ٣٩). هذا نوع من قياس الدلالة وهو "الجمع بين الأصل والفرع بدليل العلة وملزومها" مثلما قال علماء أصول الفقه. فدلّ سبحانه في هذه الآية عبادة

فالقبر فيه فتنه ووشحة وابتلاء وسؤال الملكين، والدليل على وجود عذاب القبر الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه قال ﷺ: "إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عَرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيَقَالُ هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ". ومما يؤكد هذا الحديث قوله تعالى في آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (غافر: ٤٦).

فإن وقت الموت أو المرحلة بين الدنيا والبعث هي حياة البرزخ التي قال فيها تبارك وتعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِي * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (المؤمن: ٩٩-١٠٠). يقول الفسيري: "من مات فقد دخل البرزخ، وما بين الموت والبعث فإما راحة متصلة وإما آلام وآفات غير منفصلة".^(٢)

وإن الأرواح متفاوتة في مستقرها في البرزخ حسب شقاوة صاحبها وسعادته إلى أن يأتي اليوم الآخر. هذا اليوم العظيم الذين اهتم به القرآن الكريم اهتماماً بالغاً، فتناول حقيقة اليوم الآخر وما يكون فيه من بعث وحساب وجزاء، ثم ما يتبعه من حوض وصراط وشفاعة، واعتبره ركناً من أركان الشريعة الإسلامية. ويتجلى هذا الاهتمام بكثرة ذكر القرآن الكريم لليوم الآخر، فلا تكاد تخلو سورة من الحديث عنه ولو في إشارة أو تلميح مع تقريبه إلى الأذهان، تارة بضرب الأمثال، وتارة بالحجة والبرهان، وكتيراً ما نجد القرآن الكريم يتحدث عن الدنيا كأنها ماضٍ كان، وعن الآخرة كأنها الحاضر الآن.

الأدلة الشرعية المثبتة للبعث

إن الموت في واقعه ليس انعداماً لأجزاء الإنسان، بل تفريقاً لها. وعندما تتعلق إرادة الله بعودة الأجسام، يجمع هذه الأجزاء المشتتة ويؤلفها على حالتها السابقة جسماً وروحاً، وذلك هو



دموع وقلب

دموعك تمزق قلبي،
لا أحد يكفكف هذا الدمع...
أصيب العالم بسكتة دماغية خرساء...
مشاهد الآلام تمضي سريعاً،
دون أن تخدش ضميره،
كمن يجلس في صالة عرض
يشاهد فلمًا للراحة والتسلية
والظالم يزداد عتوّاً كل يوم
أما رائحة الموت فقد ملأت أجواء الدنيا...

بما أراهم من الإحياء الذي تحقّوه وشاهدوه على الإحياء الذي استبعدوه، وذلك قياس إحياء على إحياء واعتبار الشيء بنظيره، والعلة الموجبة هي عموم قدرته سبحانه وكمال حكمته، وإحياء الأرض دليل العلة.

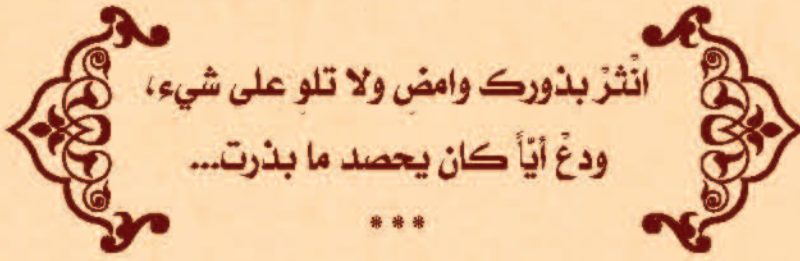
والقرآن الكريم إذ يدعم عقيدة البعث بمختلف الوسائل والطرق، فليس ذلك فقط على قرار ألزم الله به نفسه، وإثما على أحد مستلزمات العدل الإلهي والحكمة السامية، حتّى لا تكون حياة الإنسان بلا غاية ولا هدف. إنّ حاجة الإنسانية ملحة إلى الآخرة لضمان الخلود وإقامة العدل وتنظيم الحياة.^(١) وهكذا، فإنّ الإيمان بالبعث كالإيمان بالله كلاهما لا يقبل شكاً ولا تردّداً، لأنّ الفطرة السليمة تنساق إلى هذا الإيمان.

فالإيمان بالله يعترف بالمصدر الأوّل للوجود، والإيمان بالبعث يعترف بمصير الإنسان فيه. ومن حُرّم هذه المعرفة أضحت حياته كحياة الأنعام تقوده الأهواء وتسيّره الغرائز. والله تعالى لم يخلق الإنسان يديه، ولم ينفخ فيه من روحه ولم يأمر ملائكته بالسجود إليه، ولم يحمله الأمانة ولم يجعل له الخلافة، ولم يستخر له ما في السموات والأرض إلّا ليُجعل من وجوده غاية سامية تتفق مع حكمته العليا وعدله المطلق، حتّى لا تذهب جهود هذا الإنسان سدىً مصداقاً لقوله جلّ ثناؤه: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلَتَجْزَى كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (الحاقة: ٢٢). ■

(١) جامعة الزيتونة / تونس

أهوامش

- (١) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، لمحمد شكري الآلوسي، ص ١٠٩.
- (٢) في النقد الإسلامي المعاصر، لعبد الدين خليل، ص ٤٢.
- (٣) الإسلام يتحدّى، لوحي الدين خان، ص ٨٢-٨٣.
- (٤) المعاد، لمحمد حسن آل ياسين، ص ٥٠.
- (٥) لطائف الإشارات، للقشيري، ٢٤٤/٤.
- (٦) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٣٩/٣.
- (٧) عقيدة البعث في الإسلام، للتهامي نقرة، ص ١٤٠.



قراءة في عنوان ما صنف في الحديث والقرآن تطور نظام العنونة في الثقافة الإسلامية

د. محمد جكيب *

وكان من الطبيعي أن تظهر للقرآن أسماء جديدة بعد أن جمع على عهد عمر رضي الله عنه، يقول صبحي الصالح: "ويبدو أن تسمية القرآن "المصحف" نشأت على عهد أبي بكر، فقد أخرج ابن أشته في كتاب "المصاحف" من طريق موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال: لما جمعوا القرآن فكتبوه على الورق قال أبو بكر: التمسوا له اسماً. فقال بعضهم "السفر" قال: ذلك اسم تسميه اليهود. فكروهوا ذلك وقال بعضهم: "المصحف" فإن الخبشة يسمون مثله. فاجتمع رأيهم على أن يسموه "المصحف" ^(١). وبذلك صارت اللفظة عنواناً جديداً للقرآن في شكلها الجديدة، وأصبح القرآن يحمل عنوانين:

- الأول متصل بطبيعة المادة، وهو عنوان توقيفي.
- الثاني متصل بشكل المادة التي أصبح عليها، وهو عنوان تواضعي وعلمي.

وبهذا فـ "القرآن" و"المصحف" هما أقدم العناوين في تاريخ الثقافة الإسلامية، ويتربعان على قمة العناوين في عصر التدوين. ولقد أصبح القرآن الكريم مع توالي الزمن منطلقاً للعديد من المصنفات والمؤلفات والكتب التي تناولته بالشرح والتفسير، عارضة مختلف مواطن إعجازه، وكاشفة كنوزه المعرفية والدينية.

ارتبط بزوغ شمس الحضارة الإسلامية وتطورها بتدوين المعرفة. وتعتبر العنونة مظهراً من المظاهر التي عكست ذاك البزوغ. فقد تطور نظام العنونة في الثقافة الإسلامية تطوراً ملموساً تسرب إليه من الرقي الملموس الذي حققته مختلف الجوانب والمدنية والمعرفية. ولا شك في أن الإسلام كان العامل الأقوى المؤثر في هذا التطور لرسم الخطوات الكبرى والأولية لهذه الحضارة، بدءاً من مركزية القرآن الكريم في صلب الحركة المعرفية الإسلامية.

العنونة في الثقافة الإسلامية

لم يعرف التاريخ كتاباً تسمى بـ "القرآن"، فهو اسم خاص بالكلام المنزل على الرسول ﷺ. وعملياً يعد مصطلح "قرآن" أول عنوان الحضارة الإسلامية. فرغم كونه اسم جنس دال على "الكلام المعجز المنزل على النبي ﷺ، المكتوب في المصاحف، المنقول عنه بالتواتر المتعبد بتلاوته" ^(١) فقد وظف بدلالة عنوانية. والمتتبع لقصة كتابة القرآن يلاحظ أن الصحابة الذين اهتموا بتدوين القرآن كسيدنا عمر وأبي بكر وزيد بن ثابت وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم، كانوا يستعملون لفظة "قرآن" ببعد عنواين ^(٢) للدلالة على هذا الخطاب المعجز.

والعنوان موطن يجلي المجهود الذي صرفه العقل الإسلامي في هذا المجال، كمّاً وكيفاً. وللمس هذا الجهد تشير إلى أن تدوين المعرفة الإسلامية قد مرّ إجرائياً بثلاث مراحل أساسية هي: مرحلة الجمع والنقل، ثم مرحلة التدوين، وأخيراً مرحلة الترتيب والتصنيف.

تعد المرحلة الأولى حاسمة لتركيزها على تحصيل ما في الصدور من معارف؛ وتطلب ذلك جهداً كبيراً تجسّد في شدة الحرص على طلب كل ضروب المعرفة، ووضع الأسس الواقعية من الوقوع في الزلل، والتثبت من صحة ما يجمع وينقل.

وأما المرحلة الثانية فكانت مرحلة التدبير فيما تم جمعه وتدوينه، ثمهيدا للاستفادة منه في فهم القرآن والحديث في المقام الأول، والعلوم الأخرى التي نشأت على هامش الأصول الكبرى في المقام الثاني. وهي المرحلة التي صنفت فيها أمهات الكتب التي وضعت الثوابت المعرفية الأساسية للثقافة الإسلامية.

وأما المرحلة الثالثة فيمكن اعتبارها مرحلة إعادة التأمل فيما تم تدوينه من معارف بالشرح والتعليق والتفسير وضع الحواشي. ولكل مرحلة عناوينها المبرزة لطبيعة النشاط السائد. وكفي العودة إلى المصنفات التي اهتمت بالتأريخ للمجهود الذهني كـ "الفهرست" لابن النديم و"تاريخ آداب العربية" لكارل بروكلمان و"تاريخ التراث العربي" لفؤاد سزكين، للوقوف على مدى التلاحم بين العنوان وطبيعة المرحلة تأليفاً وتصنيفاً والنشاط المعرفي السائد.

علوم القرآن ونشوء مدارس القراءات

فالنصف الثاني من القرن الهجري الأول كان هو البداية الفعلية للعنوان التخصصي في علوم القرآن، ونشوء مدارس القراءات، التي تكونت حول عدد من التابعين الذين تلقوا القراءات عن الصحابة في المدينة والكوفة والبصرة. وأقدم كتاب معروف في الموضوع كتاب عنوانه "كتاب في القراءات" ليجي بن يعمر (ت: ٨٩ هـ / ٧٠٧ م)، وهو أحد تلاميذ أبي الأسود الدؤلي؛ وكتاب آخر لعبد الله بن عامر البحصي (ت: ١١٨ هـ / ٧٣٦ م)، وعنوانه "اختلاف مصاحف الشام والحجاز والعراق". والراجح أن كتباً أخرى قد جرى تصنيفها في هذه المرحلة في ضوابط القراءة وقواعدها، وفي اختلاف المصاحف المستعملة في مختلف الأمصار، ولكن عناوينها لم تصل إلينا.

ويلاحظ في عناوين هذه المرحلة، على قلتها، إشارتها إلى المضمون إشارة مباشرة، زيادة على بساطة تركيبها، وأصالتها، وهي لا تعطي الانطباع بوجود تخصيص لمجال دون آخر.

لقد أصبح القرآن موضوعاً للتأليف والتصنيف منذ زمن متقدم

جداً، إذ لم تكد تصل نهاية القرن الأول الهجري حتى كانت تصانيف بعض علوم قد أخذت مكائنها، وبدأت شخصيتها تنبلور. وتميزت عناوين هذه المرحلة بمميزات أهمها:

١- البساطة، وتتحلى في الإحالة على طبيعة الجهد الذي لا يخرج في الغالب عن دائرة القراءة والتفسير.

٢- الإحالة المباشرة على المضمون، والابتعاد عن التكلف اللغوي، والإطناب. ولذلك مبررات أهمها طبيعة المجال المشتغل فيه وهو القرآن الكريم الذي يحتم عدم التكلف؛ وطبيعة المرحلة التي تتميز بكونها بداية محتشمة ومسكونة بإعطاء فكرة صادقة عن المضمون دون زيادة.

٣- سيطرة النزعة التقريرية في بعض العناوين، وهو ما يفسر طول بعضها، كـ "كتاب اختلاف مصاحف الشام والحجاز والعراق".

٤- تشابه عدد من العناوين في الصيغة كـ "كتاب المقطوع والموصول" الذي نجده عند عامر وعند حمزة الزيات، وكـ "كتاب القراءة" الذي نجده عند "ابن كثير" وعند "نافع". ويرد ذلك إلى عدم نضج فكرة العنوان لدى المصنفين الأوائل. فغالبا ما يضاف مضمون الكتاب إلى مصنفه، وتلك ممارسة تجدد لتعليقها: في قلة المصنفات مقارنة بالمراحل الآتية، وفي الحرص على الرواية الصحيحة التي تستند على التأكد من هوية المصنف، وهو مركز أخلاقي وحضاري سيفتح الباب لظهور علم الجرح والتعديل.

٥- الراجح أن عدداً من الكتب والرسائل لم يصل إلينا في الشكل والصورة التي صيغ بها ويحتمل أن تكون العناوين الحقيقية لهذه المصنفات ضاعت وعوض بها عناوين تقريرية ومباشرة، وهو ما يرجح تناقلها مشافهة في أول الأمر، ثم تدوينها بعد ذلك.

٦- وأخيراً فإن أصالة هذه العناوين ظاهرة وواضحة. فلا أثر فيها للمؤثرات الأجنبية الدخيلة، فهي من صميم الدين الجديد.

وعلى العموم ففكرة صياغة العنوان لم تكن واضحة وحليّة نظراً للأسباب التي ذكرنا. فالإشارات الواردة في عناوين هذه المرحلة تعبر بشكل من الأشكال عن المدونة. فإذا قيل مثلاً "كتاب ابن عباس"، فهذه العبارة عنوان على مدونة لابن عباس دون فيها ما فسر من آي القرآن الكريم وملاحظات أخرى.^(٤)

إن الغالب على عنوان هذه المرحلة هو الطابع التداولي الرامي إلى التسهيل على الراغب في التعرف على المضمون، مع ربطه بالمصدر المتمثل في اسم المؤلف. وإذا كان ضبط القراءة والتفسير هو عمق الجهد المطلوب في هذه المرحلة، فإن علة ذلك هي

الحاجة إلى الفهم الصحيح للقرآن والمحافظة عليه.

وأما بخصوص الحديث فالمؤكد تاريخياً أن تدوينه كان بدأ على عهد الرسول ﷺ، فقد روى الإمام أحمد في مسنده أن عبد الله بن عمر كان يكتب الحديث عن رسول الله ويكتب كل ما يسمعه عنه، وكان الرسول ﷺ يؤيده في ذلك، وكان عبد الله يسمي الرقعة التي كتب عليها الحديث "الصادقة"^(٥) التي نعتبرها أول مدونة في الحديث وأول عنوان فيه. ويوازيها عنواناً آخر هو "الصحيفة الصحيحة" وأطلقه همام بن منبه على مجموع الأحاديث التي سمعها عن أبي هريرة رضي الله عنه. وتأثير العناوين في المصنفات الحديثية سيظهر جلياً في تصانيف كثيرة لاحقة. فقد عنونت الكثير من كتب الحديث بـ "الصحيح"، ولسنا هنا بصدد التأريخ لتدوين الحديث، ولكننا نرغب في تتبع التطورات التي عرفها عنوان المصنف الحديثي، لأنه يكشف عن قدر من التطور المنهجي والمعرفي الذي عرفه هذا المجال الذي توج في القرن الثالث الهجري بظهور أغلب المجامع الصحيحة التي تمثل عصارة جهود جمع الحديث ونقله من أفواه الرواة وصدور العلماء والمدونات المنفردة.

العنونة وتدوين الحديث

وفيما يرجع إلى العنونة، فقد تطورت موازية لتدوين الحديث والتأليف فيه. يلمس ذلك من خلال بعض الكتب المصنفة خلال المراحل الثلاثة مثل "صحيفة" عبد الله بن عمرو بن العاص (الصادقة)، و"صحيفة" جابر بن عبد الله، و"الحديث" لنبيط بن شريط الأشحسي الكوفي وأمثالها من المصنفات.

الطابع الغالب على هذه العناوين هو عدم خروجها عن الإشارة إلى طبيعة المصنف، بالاكتماء بالإحالة على المادة التي كتب عليها النص (صحيفة)، أو بنوعية المادة المكتوبة (حديث)، ونسبة ذلك إلى مدونها أو الذي وجدت عنده ساعة التصنيف والجمع، دون الاعتناء بموضوع المصنف أو محتواه. الأمر الذي يسمح بأن تتصور بنية العنوان على هذه الصيغة: الحالة (حديث أو صحيفة) + اسم المصنف.

ولا تعكس هذه العناوين وعي العقل خلال هذه المرحلة بأهمية العنوان، لأنه لم يكن غاية في ذاته؛ فقد ظل مجرد دال على شكل ومضمون المعنون. الأمر الذي يعكس انشغال علماء الحديث برغبة الإسراع في تدوينه مخافة موت حملته الذين مات عدد منهم في الفتوحات، وسيعرف هذا الجهد فيما بعد بمصطلح "تقييد الحديث".

مهدت هذه مرحلة لظهور العلوم التي تهتم بـ "تصنيف

الحديث". وشكلت بعض هذه المصطلحات وغيرها على الأرجح اللبنة الأولى لظهور كتب كثيرة تحمل عناوينها عبارة: "مصنف"، و"سنن"، و"موطأ"، و"جامع"، و"صحيح".

تتميز العناوين التي تمتد إلى حدود القرن الثالث الهجري بغلبة الطابع الموضوعاتي الذي يكشف عن وجود نزعة تقريرية في أغلب العناوين إن لم نقل كلها، إذ تحمل كل مدونة عنواناً يحيل على موضوعها (الأحاديث، كتاب الدعاء، كتاب الصلاة).

والمتنعم في الأسماء سيلاحظ أن العنوان ظل ميالاً إلى البساطة إلى حدود القرن الثاني الهجري، ولم تخرج هذه البساطة في الغالب عن إطار كلمة أو كلمتين (كتاب السنن، أحاديث، المناسك...). وسيعرف النصف الأول من القرن الثالث تغييراً في بنية العنوان يميله إلى التركيب (كتاب الأمالي في آثار الصحابة - معرفة الرجال وسؤالات إبراهيم بن عبد الله الجنيد الخنلي - كلام يحيى بن مصعب في الرجال "كتاب المجروحين"). كما تجسد هذه العناوين دخول الحديث وعلمه مرحلة جديدة تميزت بالرغبة في التجديد وتدقيق الإشارة إلى المحتوى وضبط المادة، مما يعد امتداداً لطبيعة العنوان في المرحلة السابقة، ولكن مع ميل إلى التعامل مع الحديث في إطار موضوعات دقيقة، ككتاب المناسك، وكتاب الجهاد، وكتاب الصلاة، وكتاب البر والصلة. ونلمس في عدد من العناوين البواكر الأولى لاستقلال كل علم من علوم الحديث بشخصيته وتخصصه كـ "معرفة الرجال"، و"طبقات الرواة"، التي حملت في أحشائها بوادر بعض علوم الحديث الأساسية كعلم الرجال أو علم الجرح والتعديل أو طبقات المحدثين.

وتبدو هذه العناوين في الأخير أحادية الاتجاه لكونها مسكونة برغبة إخبار المتلقي بالمضمون في المقام الأول. الأمر الذي لا يترك مجالاً للعناية بالعنوان من الناحية الفنية، نظراً لسيطرة التزعة النفعية في بعدها الأخلاقي الديني على كل العناوين.

على الرغم من عدم وجود حدود صارمة تفصل مرحلة سابقة عن أخرى لاحقة في مجال المعرفة، فإن المرحلة اللاحقة ستعرف دخول علم الحديث مرحلة جديدة شكلاً ومضموناً. وقد عكس العنوان هذا التحول الذي تجسد في العطاء الكثير وظهور أئمة الحديث الكبار كالبخاري ومسلم والترمذي.

إن الملاحظة الأساسية التي تنطق بها مؤلفات هذا القرن هي غزارة التصنيف في هذه المرحلة، فهي كثيرة يمكن العودة إليها في الكتب التي تؤرخ للتراث. فالقرنان الثالث والرابع عرفا حركة فكرية نشيطة في كافة المجالات. وعلم الحديث أحد تلك المجالات التي تجسد فيها النضج الفكري والحضاري للثقافة.

والتأمل في هذه العناوين سيلاحظ توجهها إلى:

١- الموسوعية، وتجلّى في الدلالة على عمق الاستقصاء والجمع (الجامع الصحيح - التاريخ الكبير - كتاب الطبقات - كتاب السنن...).

٢- التخصص، ويتمثل في تدقيق موضوع الكتاب (كتاب الضعفاء - كتاب الكنى - كتاب رفع اليدين في الصلاة - كتاب العلل - كتاب الجمعة...)، ويتمثل كذلك في بروز هوية أهم علوم الحديث كعلم الرجال المرتبط بعلم الجرح والتعديل، وعلم الرواة وطبقاتهم.

وإضافة إلى ذلك فإن الطابع التاريخي صار ميزة تسيطر على أغلب العناوين نظرا لارتباط علم الحديث بالتوثيق، وضرورة التيقن من سلامة رجال الحديث ونزاهتهم، إضافة إلى عامل المدة الفاصلة بين عصر هؤلاء المؤلفين وعصر الرسول ﷺ والصحابة والتابعين.

أسباب العنونة الطويلة

وعلى مستوى الصياغة بقي عنوان هذه المرحلة مشدودا إلى صورة الصياغة القديمة من حيث البساطة، وغلبة البنية الاسمية، وانعدام التركيب إلا نادرا، والارتباط المباشر بالمضمون، الذي أدى في بعض الأحيان إلى صياغة عناوين طويلة دون أن يصبح ذلك قاعدة كـ "تسمية الإخوان الذين روي عنهم الحديث" وكـ "معرفة المجروحين من الرجال". ويجسد الطول النسبي لهذه العناوين التطور الذي عرفه مضامين المؤلفات والتي بدأت تجمع بين الجمع والشرح والتفسير. فصياغة العنوان أصبحت تتم في ضوء الحرص على تقديم صورة دقيقة عن المؤلف. ويلمس ذلك بالعودة إلى "الجامع الصحيح" للبخاري. فقد قسم إلى كتب، وبدل مصطلح كتاب على الجزء أو الفصل، ولا يتجاوز العنوان مصطلح "كتاب" مضافا إلى كلمة واحدة تدل على الموضوع المراد الوقوف عنده كـ "كتاب الإيمان، وكتاب العلم، وكتاب الوضوء...". وهي بنية مركزية يجري تفسيما إلى أبواب، ويحمل كل باب عنوانا قد يتسع طوله بحسب تشعب الموضوع كـ "باب الإيمان، وباب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام...". وكان البخاري حريصا فيما يبدو على أن يكون للباب عنوان يدل على مضمونه دلالة واضحة وبسيطة تسهل على المتلقي الوصول إلى مبناه.

ومن هنا يمكن القول إن البخاري في جامعه قد كان معنيا بمتلقيه؛ فالبعد التداولي في بنية العنوان التي تنطلق من استكناه أفق انتظار المتلقي يتحكم فيها عاملان؛ عامل ديني يتمثل في تسهيل الوصول إلى القضية الدينية كما وردت عن الرسول ﷺ، وعامل

موضوعي يتمثل في تنظيم المعرفة الدينية المتضمنة في الصحيح. ونظرا لأهمية صحيح البخاري في حياة المسلمين الدينية، لقي عناية كبيرة جدا. والعناوين المصنفة على هامشه شرحا وتفسيرا وضبطا تجسد ذلك. وهي جهود بدأت مع تصنيفه واستمرت إلى حدود القرن السابق، بل وما تزال إلى اليوم. وأهم ما يسجله المتأمل فيما صنف على هامش هذه الموسوعة هو الكثرة والدقة والموسوعية والتنوع. وهي عناصر تحمل أكثر من دلالة، تنبئها من خلال تحليل بعض النماذج العنوانية مثل "منحة الباري في جميع روايات البخاري"، و"شرح مشكل البخاري"، و"العقل الجلي في حل إشكال الجامع"، و"الإفهام لما في الصحيح من الإبهام"، و"نفحة المسك الداري لقارئ صحيح البخاري"، و"المتجر الربيع على الجامع الصحيح...".

تدل هذه العناوين دلالة مباشرة على مضامينها، وهي تحمل في طياتها بعدا دلاليا دقيقا يدل على حاجات المتلقي المتزايدة إلى الجامع الصحيح، تبعا لتغير أوضاع الحضارة؛ وتدل من جهة أخرى على تبعيتها إلى مصدر واحد ترفع من قيمته التداولية بين الناس مع عمق الإشارة إلى الموضوع المعالج.

ومن الخصائص المتصلة ببعض العناوين، تمثيلها لطبيعة المرحلة من الناحية الفنية. فابتداء من القرن الثامن أخذ العنوان يأخذ مسلكا غير معهود من قبل، وهو سيطرة الصنعة في بنائه من خلال التركيز على التناغم الموسيقي المتمثل في السجع والجناس والطباق. فالعنوان كغيره من ضروب المعرفة الأخرى عكس مستوى الضعف الذي عرفه العالم الإسلامي والذي تجسد في العناية بالأشكال قبل المضامين، وإن كانت هذه الصنعة تعكس عناية بالمتلقي. كما تعكس بعض العناوين صورة الحياة التي عاشها المسلمون على امتداد الرقعة الإسلامية، ويتجلّى ذلك في الرياض والرياحين والأثمار والأزهار التي تضمنتها بعض العناوين مثل كتاب "روضة العقلاء ونزهة الفضلاء".

وحسبنا في هذه العجالة أن نبه المهتمين والباحثين إلى قيمة البحث

في مجال العتبات التي يتحتم المرور منها قبل الولوج إلى النص. ■

(٩) جامعة شعيب الدكالي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الجديدة / المغرب

الهوامش

(١) مباحث في علوم القرآن، لصحي الصالح، ص ٢١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٩-٧٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ٧٧-٧٨.

(٤) العنوان في الأدب العربي، لمحمد عويس، ص ١٠٥.

(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد، ٢٦٢/٤.

كما تتساقب قطرات الغيث من بين الغيوم،
هكذا ينساب جمال النفس من القلب الموصول بالله...

مع النبي ﷺ في أحزانه

أ.د. إسماعيل لطفي حقان *

أخرى نعتقد أنه خاص بالرسول ﷺ. فحزنه عليه السلام حزن محب، كما أن ابتسامه ابتسام وفور، وهذا يدل على صعوبة الكلام عن حياته ﷺ الروحية والمعنوية.

ومن هنا عندما تلقي نظرة على ما أُلّف عن رسول الله ﷺ نجد الكتب التي تتحدث عن عالمه الداخلي هي قلة قليلة جداً. ويؤيد قولنا هذا -ولو من جهة أسماء الكتب- كتاب صلاح الدين المنجد المسمى بـ "معجم ما أُلّف عن رسول الله ﷺ".^(١) نريد أن نتحدث في مقالنا هذا عن موضوع لم نر في الكتاب المذكور آنفاً اسم أي بحث عنه، وهو "حزن النبي ﷺ". ففي الكتب المشهورة حول سيرته ﷺ من أمثال "الشفا بتعريف حقوق المصطفى" للقاضي عياض، و"زاد المعاد" لابن القيم،

إن سبر أعماق أي إنسان صعب جداً، فالجوانب الأعماقية ليست سواء عند كل الناس، فالكلام عن الحالة النفسية لشخص ما -حتى ولو كان إنساناً عادياً- ليس بالأمر اليسير؛ لأن هذا الجانب موضوع ذاتي يختلف من شخص لآخر. فما بالك إذا كان الحديث عن العوالم الداخلية للنبي المصطفى (عليه أكمل النحايا) الذي هو معلّم جميع البشر ومرشدهم؛ لأن عالمه الداخلي ﷺ يتضمن أمثلة عالمية مثالية. فالذين حاولوا أن يقصّوه ﷺ علينا من الناحية الخلقية والخلقية يلفتون أنظارنا إلى كونه ذا وجه طليق دائم الابتسام، وذا مسحة حزن خفيفة تغشى وجهه الكريم، ويركّزون على هذا الوصف. فكون المرء في آن واحد محزوناً من ناحية ومتبسماً من ناحية

و"المواهب اللدنية" للباجوري، لم نعثر على موضوع تحت عنوان "حزن النبي ﷺ". ولكن من البديهي أن المواضيع والأحداث التي تسببت في حزنه ﷺ، هي في غاية الأهمية من حيث كونها تنم عن حياته الوجدانية والروحية.

العبد الأسوة والنبي الخاتم محمد ﷺ في حزنه وألمه أيضا هو أسوة لأمتة والإنسانية جمعاء. فهو النموذج المثالي الذي يمثل القمة العليا في كافة الأعمال الفاضلة التي تناسب طبيعة الإنسان وفطرته التي فطره الله عليها. ومن ثم فهو قدوة في عواطف الحزن والألم كذلك، وهي من الجوانب الفطرية للإنسان. وهل التربية سوى تهذيب العواطف والسلوكيات!..

فحزنه ﷺ من حيث كونه قدوة للأمة، ورسولاً للهداية، ومرشداً، ومعلماً، ومُصلحاً، ورئيساً للدولة، يختلف تماماً من حيث العمق والمستوى عن حزنه وتألمه كإنسان، كأب، كصديق، كزوج.. إلخ. ولكن من الصعب جداً تمييز هذه الحالات عن بعضها أثناء كل حادثة؛ ولذلك حاولنا تقديم الموضوع ككل ولم نهج طريقة تقسيم حالاته المذكورة من حيث "كونه بشراً" و"كونه رسولاً"، وإن بدا التقسيم الموضوعي أكثر منطقياً. فعلى هذا سنقدم باقة من حياته ﷺ التي تشكل مثالا ومقياسا في حزن المؤمن وألمه.

بادئ ذي بدء نريد أن نلفت الأنظار إلى قاعدة وهي أن الأنبياء عليهم السلام لا يرفعون آلامهم وأحزانهم إلا إلى الله تعالى. وقد سجل هذا وأعلن على لسان يعقوب الخليلي في القرآن الكريم: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ (يوسف: ٨٦). أما نبي الحزن ﷺ فقد شكاه حزنه أثناء عودته من الطائف إلى ربه قائلاً: "اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو يحل عليّ سخطك. لك العتي حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك." (٣) ورفع النبي ﷺ أحزانه إلى الله تعالى ليست خاصة بحادثة، بل هي عادة جارية في كل أموره.

ونلاحظ الصادق المصدوق ﷺ يعبر عن مدى اطمئنان قلبه أثناء الهجرة في غار ثور عندما يهدئ روع صاحبه أبي بكر ويخفف من وطأة حزنه قائلاً: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ (النوبة: ٤٠). فكونه في منتهى الثقة والاطمئنان في تلك اللحظة المرعبة وطمأنته

لصديقه الصديق ما هي إلا ترجمة فعلية منه ﷺ بلسان القول والحال لقول الله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة: ٦٧). إن حزنه وقلقه في ذلك الموقف العصيب لم يكن بسبب ما يمكن أن يتعرض له من أذى أبداً، إن حزنه كان أوسع وأضخم من ذلك بكثير، إنه حزن عظيم يحتضن أمتة والناس أجمعين. وقول الله ﷻ ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ (التوبة: ١٢٨) يدل على صحة هذا المعنى.

أما شففته وحنانه ورأفته، ورغبته وحرصه على اهتداء الناس إلى الطريق القويم كان يقض مضجعه ولا يدعه يتذوق حلاوة النوم، وقول الله تعالى ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: ٣) أفضل ما يعبر عن هذا المعنى. فذات مرة جاء المشركون إلى سيد الأنعام ﷺ وسألوه عن بعض الأمور، فقال لهم رسول الله ﷺ: "أخبركم بما سألتكم عنه غداً"، ولم يستثن، فانصرفوا عنه. فمكث ﷺ - فيما يذكرون - خمس عشرة ليلة لا ينزل الله إليه في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبريل. فحزن سيد الأوابين ﷺ لانقطاع الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل من الله ﷻ بسورة أصحاب الكهف، فيها معابته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سأله عنه من أمر الفتية، والرجل الطواف، والروح. (٣) وقوله تعالى ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (الكهف: ٦) يدل على حالته ﷺ الروحية أثناء هذه الأحداث. فهذه الآيات تدل على مدى استشعاره - كرسول الهداية - بالآلام، وضخامة حزنه من أجل إنقاذ البشرية. ونعتقد أن "حزن النبي ﷺ" هو متمركز في هذه النقطة؛ وأن محور حزنه ﷺ هو الإيمان، ومركزه الهداية: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (لقمان: ٢٣)... فهذه الآية دليل قرآني على هذه الحقيقة، فحزنه ﷺ كان سامياً وفريداً من نوعه.

ومن ناحية أخرى لم يكن سيد الأنعام ﷺ ملاكاً، فمن الطبيعي أن تظهر عليه بعض الحالات المتوقعة من البشر. ولكنه عاش حياة نموذجية ومثالية للغاية على مستوى عالمي بدت معالمها وانعكاساتها على عواطفه وأحاسيسه بنفس المستوى ومنتتهى الاتزان.

إن دعوة لم تغد بالأحزان ولم تتقلب بالهم والآلام لن تثمر أبداً. إن الدعوة إذا فشلت في مخاطبة عواطف الإنسان السامية وإثارة مكان الحزن المقدس، فلن تكون دعوة إنسانية جمعاء، ولن يكون أصحابها دعاة حقيقيين.

يروي لنا القاضي عياض (٥٤٤هـ/١١٤٩م) رحمه الله في



٢- كونه ﷺ مهاجرًا

فقد اضطر مَفْخَرَةُ الإنسانية ﷺ إلى الهجرة من مكة تحت ضغط المشركين. وفي أثناء الهجرة اتجه نحو مكة واقفا على الخزورة، فقال: "ما أطيبك من بلد وأحبك إليّ، ولولا أن قومي أعرجوني منك ما سكنت غيرك".^(٨)

إذا كانت مشاعر الحزن المؤلمة تغمر جوانح الإنسان -لا محالة- لدى فراقه لمزله أو قريته أو مدينته بإرادته، فما بالك إذا كان هذا الفراق بسبب الاضطهاد والإبعاد، وإذا كان هذا الشخص رسول الله ﷺ. فهو بكلماته المؤثرة عبر عن أحاسيسه نحو كعبة التوحيد في إطار بشري طبيعي مشيرا إلى مصدر حزنه ﷺ الحقيقي.

٣- كونه ﷺ أبًا

النبي ﷺ قد حزن على ولده إبراهيم وحفيده من زينب أثناء وفاتها، وعبر عن مدى حزنه بسكب عبراته الشريفة. فلتابع معًا الرواية في هذا الصدد:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبي سيف القين، وكان ظنرا لإبراهيم عليه السلام، فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقبله وشمّه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك، وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: وأنت يا رسول الله؟ فقال: "يا ابن عوف، إنها رحمة". ثم أتبعها بأخرى، فقال ﷺ: "إن العين تدمع والقلب يحزن، ولا تقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون"^(٩) وبقوله الشريف هذا عبر عن عمق تأثر مشاعره بموت ولده.

فشرف نوع الإنسان ﷺ -بلا شك- كان يفصح عن أسى وأبعد أحاسيس حزنه نحو ابنه. وقد أظهر لنا كيفية تصرف المسلم المثالي حيال تلك الظروف، وأثبت ﷺ أن البكاء ودمع العين وحزن القلب لا يخالف شأن الرجولة، وأن الصراخ وتمزيق الملابس وشق الحيب وراء الميت ليس من شأن المسلم ولا يليق به.

٤- كونه ﷺ زوجًا أو رب أسرة

النبي ﷺ كنز زوج عاش أحزانًا كثيرة... عاش حزنًا بفقدان أمنا

كتابه "الشفا" عن علي رضي الله عنه، أنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن سبب حزنه، فقال: "المعرفة رأسمالي، والعقل أصل ديني، والحب أساسي، والشوق مركبي، وذكر الله أنيسي، والثقة كنزي، والحزن رفيقي".^(١٠)

والذين يصفونهم ﷺ يركزون على حزنه المتواصل وديمومة فكرته، قال ابن أبي هالة: كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة...^(١١) ذكر هؤلاء "الحزن" و"الفكرة" معًا يعني أنه ﷺ قد جمع بين المشاعر السامية والفكر. فسيد البشر ﷺ كان يُظهر فرحه بابتسامة؛ أما إظهار حزنه أحيانًا فكان بإهراقه الدموع الساخنة، وأحيانًا بتكراره عبارة أكثر من مرة، وأحيانًا -ولو بندرة- بالدعاء على من أحزنه؛ لأن الدموع إن كانت نوعًا من إظهار الحزن، فالدعاء على المتسببين للحزن هو طريق آخر لإظهار الحزن.

١- كونه ﷺ صديقًا وقريبًا

من ناحية أخرى ما حزن رسول الله ﷺ حزنًا يسئمه من الحياة، ولكن فقدان أحبائه قد أحزنه مثلما يحزن أي إنسان. فالعام الذي توفيت فيه زوجته حديجة رضي الله عنها، وعمه وحاميه أبو طالب كان "عام الحزن" لجميع المسلمين وعلى رأسهم النبي ﷺ. ويوم استشهاد جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، ذهب النبي ﷺ إلى بيت جعفر وضّم أولاده إلى صدره، ومسح رأسهم بشفقة وبكي. فعن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ، أنها قالت: "لما أتى نبي جعفر عرفنا في وجه رسول الله ﷺ الحزن".^(١٢)

ولما أصيب زيد بن حارثة في معركة "مؤتة"، أتاهم النبي ﷺ، فجهدت بنت زيد، أي تحركت وهمت بالبكاء في وجه رسول الله ﷺ فبكى رسول الله ﷺ حتى انتحب. فقال له سعد بن عباد: يا رسول الله ما هذا! قال: "هذا شوق الحبيب إلى حبيه"^(١٣)

خديجة رضي الله عنها وذكرياتها حية في ذهنه دائما.. وعانق الحزن بافتراء المنافقين على أمتنا عائشة الطاهرة رضي الله عنها في حادثة "الإفك" .. وتجرع الحزن بالابتعاد عن أزواجه تسعة وعشرين يوما في حادثة "الإيلاء". وفي جميع هذه الحالات عانى الرسول كزوج ورب أسرة من أحزان عميقة بأبعادها المختلفة، حتى إن الحزن الذي كابده أدى به أحيانا إلى المقاطعة والتَّرك.

٥- كونه ﷺ قائداً وإماماً

لما جاء رسول الله ﷺ خبرُ بئر معونة وقتل سبعون من صحابته الكرام ظهر حزنه ﷺ بالدعاء على قتلهم قائلاً: "اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف، اللهم عليك بيني وبينهم وبين آلهم وعشيرتهم" (١٠) فعندما يصف لنا أنس بن مالك رضي الله عنه حالة النبي ﷺ آنذاك يقول: "ما رأيته رسول الله ﷺ وجد على شيء قط ما وجد على أصحاب بئر معونة". (١١)

فدعاء النبي المرسل رحمةً للعالمين ﷺ على مضر من أجل شدة حزنه، له معان خاصة جداً؛ لأن منع تبليغ الإسلام وقتل العلماء بنصب كمين لرجال الإرشاد والعلم الساعين في نشر الدين الإسلامي قد دفع الرسول ﷺ إلى حزن بالغ. وبدعائه ﷺ على المحرمين طوال شهر بالهلاك، كان يعلن هذه الجريمة الشنيعة إلى كل العالم بأسلوب بليغ. ونعتقد أن هذا الدعاء النبوي بالهلاك، في الآن نفسه موجّه إلى من يقف ضد تبليغ الإسلام ودعائه وفي جميع الأزمنة.

٦- أسباب أخرى لحزن النبي ﷺ

نرى نبي الحزن ﷺ قد حزن من تصرفات بعض أصحابه خاصة وأمتة عامة، وقام بالإفصاح عن حزنه لمن حوله. وفيما يلي سرد لبعض الأمثلة.

أ- التباطؤ في الامتثال لأوامره ﷺ

لما واثق رسول الله ﷺ المشركين في الحديبية عام الحديبية وحال كفار قريش دون البيت، أمر رسول الله ﷺ المسلمين أن ينحروا ويحلبوا، ولكن ما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات. فلما لم يقم منهم أحد -لأن بعضهم كان قد استنقل بعض مواد الصلح، وبعضهم لا يزال يأمل في العمرة- قام فدخل على أم

سلمة رضي الله عنها فذكر ذلك لها. فقالت أم سلمة: "يا نبي الله! اخرج ثم لا تكلم أحدا منهم بكلمة حتى تنحر بذكك وتدعوا حلاقك فتحلق". فقام فخرج فلم يكلم منهم أحدا حتى فعل ذلك، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا، ففعلوا ولكن بعد توقف منهم كان قد أغضب رسول الله ﷺ. وفي رواية عندما أمرهم، حلق رجال وقصر آخرون؛ فقال رسول الله ﷺ: "يرحم الله المحلقين"، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟! قال: "يرحم الله المحلقين"، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟! قال: "يرحم الله المحلقين"، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟! قال: "والمقصرين"، فقالوا: يا رسول الله فلم تظاهرت بالترحم للمحلقين دون المقصرين؟ قال: "لم يشكوا". (١٢)

ب- الجهالة

ففي مقدمة الأمور التي دفعت الرسول إلى الحزن وجعلته يغضب ويتأذى، هو مسارعة بعض المسلمين بإبداء آرائهم من دون روية -كما ينبغي- في بعض الأمور وتسببهم في أخطاء. والحادثة التالية موضحة لهذا الأمر بأحسن صورة. عن جابر رضي الله عنه قال: خرجنا في سفر فأصاب رجلاً منا حجرٌ فشجّه في رأسه ثم احتلم، فسأل أصحابه فقال: "هل تجدون لي رخصة في التيمم؟" فقالوا: "ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء". فاغتسل فمات. فلما قدمنا على النبي ﷺ أخبر بذلك فقال: "قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا، فإنما شفاء العي السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر على جرحه خرقة، ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده". (١٣)

فإظهار الرسول ﷺ مدى حزنه بهذه الطريقة، وتفسيره للحادثة بهذا الشكل، والدعاء على من أفتى بقوله "قتلوه قتلهم الله"، هو تهديد وتأنيب لمن يُفتي في أمور الدين دون الاطلاع على حقيقة الأمر. فقول الرسول ﷺ المذكور يدل من ناحية على عمق حزنه وتأثره بالحادثة، ومن ناحية أخرى هو تنبيه وتحذير لمن سيكون في وضع من يُفتي بغير علم. فليتنبه الذين يُدون آراءهم ويقولون في أيامنا هذه في الأمور الدينية بغير علم، دون أن يكون لهم نصيب من العلم في أمور الدين، ودون الخوف من الإفتاء فيما يجهلون حكمه.

ج- الغلظة

وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي".^(١٦) فمثل هذا التهديد والتنبية هو عبارة عن حزن ذي أبعاد غاضبة.

هـ- الحزن بسبب التفرقة والاختلاف

فكل تصرف يؤدي إلى تفرقة الأمة وفقدان وحدتها كان يغمر الرسول ﷺ في حزن عميق. وأكبر دليل على هذا هو ما قاله لمسلمين يشتجران ويدعو كل منهما عشيرته ليعينه. ونعتقد أن الأمة الإسلامية الممزقة اليوم إلى آلاف قطع سبب حزن له صلى الله عليه وسلم بهذا المعنى.

حزن عظماء الرجال يتناسب مع قدرهم فيكون كبيراً وعميقاً. أما حزن سيد السادات ﷺ فهو أعظم حزن وأسماء دون شك. فسيّد الأنبياء ﷺ كما هو فريد في شمولية نبوته، كذلك هو متفرد في عمومية حزنه، بحيث يغمر جميع الكائنات ويشمل الناس أجمعين. فالرسول ﷺ أسوة حسنة في ضبط وموازنة جميع تصرفات المسلمين وسلوكهم ومعاملاتهم. كذلك هو قدوة في عمق الحزن ومصدره وغايته. ■

(١٦) جامعة مرمره، كلية الإلهيات - إسطنبول / تركيا. الترجمة عن التركية: أشرف أونين

الهوامش

(١) صلاح الدين المنجد في كتابه "معجم ما أوفى عن رسول الله ﷺ" يذكر اسم كنانين في هذا المجال وهما: "روحانية الرسول ﷺ" لمحمد الغزالي، بيروت؛ و"حياة محمد" لعلي عبد الحليل، القاهرة ١٩٦٤م.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ٦١/٢-٦٢.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام، ٣٢٢/١-٣٢٣.

(٤) الشفا للقاضي عياض، ٢٨٨/١-٢٨٩.

(٥) الشفا للقاضي عياض، ٢٨٨/١-٢٨٩.

(٦) السيرة النبوية لابن هشام، ٢٣/٤-٢٣.

(٧) الطبقات الكبرى لابن سعد، ٤٧/٢.

(٨) الترمذي، المناقب، ٦٩.

(٩) البخاري، الجناز ٤٣؛ مسلم، الفضائل ٦٣.

(١٠) البخاري، الأذان ١٢٨؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ٥٣/٢.

(١١) المسند للإمام أحمد، ١٣٧/٣؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ٥٤/٢.

(١٢) السيرة النبوية لابن هشام، ٣٣٤/٣.

(١٣) أبو داود، الطهارة ١٢٥؛ ابن ماجه، الطهارة ٩٣.

(١٤) البخاري، المغازي ٤٥، الديات ٢.

(١٥) البخاري، الأدب ٧٢.

(١٦) انظر إلى: البخاري، النكاح ١؛ مسلم، النكاح ٥.

عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرفة، فصبحنا القوم فهزمناهم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم: فلما غشيناها قال: "لا إله إلا الله"، فكفّ الأنصاري عنه، فطعنته برمحٍ حتى قتلته، فلما قدمنا بلغ النبي ﷺ فقال: "يا أسامة! أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله". قلت: كان متعوذا. فما زال يكررها، حتى تمنيْتُ أني لم أكن أسلمتُ قبل ذلك اليوم".^(١٤)

فهذه الحادثة مختلفة عن السابقة من ناحية. فالتصرف في تطبيق الموضوعات الدينية ثم القضاء على حياة مسلم كما دفع الرسول ﷺ إلى الحزن، كذلك محاولة تفسير الدين من وجهة قناعات شخصية وصّبّها في هذا القلب أحزنه ﷺ أيضا. أما سلوك الرسول ﷺ بهذه الطريقة نحو الحادثة المذكورة للتركيز على أن أحوج ما تحتاجه المسائل والأوضاع من اعتدال وتبجيل وتطبيق على بصيرة هو أثناء القيام بأداء الوظيفة الدينية، وأن العلاقات بين المسلمين لا بد أن تجري وفق الروح الإسلامي، وعكس هذا هو سبب في "الحزن".

د- الإفراط والتفريط

ومن الأسباب التي أحزنته ﷺ وأعضبته هي الابتعاد عن خط الاعتدال في اتباع السنة النبوية من خلال ابتداع مبررات لا أساس لها. فتنبية الرسول المجتبي ﷺ في هذا الموضوع كان جاداً وذا أبعاد مهددة. عن مسروق أن أُمنا عائشة رضي الله عنها قالت: صَنَعَ النَّبِيُّ ﷺ شَيْئاً فَرَحَّصَ فِيهِ فَنَزَّهَ عَنْهُ قَوْمٌ فَلَبَّغَ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ فَخَطَبَ فَحَمَدَ اللَّهَ ثُمَّ قَالَ: "مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَنْتَزَهُونَ عَنِ الشَّيْءِ أَصْنَعُهُ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُهُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدَّهُمْ لَهُ خَشْيَةً"^(١٥) وهناك مثال آخر في هذا الموضوع يمكن ذكره في هذا الصدد: عن أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أُخبروا، كأنهم تَقَالَوْهَا، فقالوا "وَأَيُّنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ". قَالَ أَحَدُهُمْ "أَمَّا أَنَا فَأَنْتِي أَصْلِي اللَّيْلَ أَبَدًا"، وَقَالَ آخَرُ "أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أَفْطِرُ"، وَقَالَ آخَرُ "أَنَا أَعْتَرِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا". فجاء رسول الله ﷺ فقال: "أنتم الذين قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَّا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتَقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأَفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ

العظام البشرية

مصدر إلهام للهندسة المعمارية

أ.د. محمد سامي بولاظ أوز*

بالاهتزاز في أثناء سير المارة عليه، الأمر الذي وضع المصممين في موقف حرج، في حين أن توقع تحركات جسر تم إنشاؤه والتعبير عنه بمعادلة واحدة بسيطة سيكون أكثر سهولة.

هناك فوائد أخرى لهذا التصور الجديد؛ فإن "فينست" من جامعة "ريدنج" يقول: "إذا كان هناك بيان رياضي واحد لبناء بأكمله، فذلك يعني أن البيان متماسك ومتكامل إلى أقصى حدود". ومن ثم إذا كانت الأشكال الهندسية تتغير ببطء دون أن تُبدي تغيراً مفاجئاً، فهذا يعني أن هذه الأنواع من المباني منشآت منتظمة التغير ومتماسكة البناء. أما المنشآت التي تتعرض لتغيرات آنية ومفاجئة، فإن التمددات تتكاثف وتزداد لتكوّن مناطق ضعيفة تساعد على إسراع تحطم الخانات وهشمها. في حين أن التغير في البناء العظمي متظم ومتماسك ويزيد من مقاومة الكيان العظمي ومتانته، وذلك يساعد على توزيع الطاقات بشكل أكثر تجانساً وتوازناً داخل البنية. من هنا يمكن القول بأن الأشكال الهندسية التي يتم إعداد تصاميمها بوحى من النظام العظمي في جسد الإنسان سوف تتمتع بنفس الأوصاف المذكورة.

إن هناك حاجة ماسة لأبحاث ودراسات متقدمة تفسح المجال أمام إمكانية نقل التصاميم العظمية إلى قطاع الهندسة المعمارية. ولما كانت هذه التصاميم شديدة التركيب والتعقيد فيجب فهم خصائص كافة الأشكال بالتفصيل، وإلا فإن التقليد الأعمى لن يؤدي إلى أي فائدة.

هذا، ومع تطور العلوم الحديثة اليوم يمكن فهم أسرار التصاميم العجيبة الموجودة في أجسام الكائنات الحية بصورة أفضل والاستفادة منها في مجالات شتى من الحياة. كما يمكن كذلك فهم العناية الربانية الشاملة والعلم الإلهي المحيط والحكمة الخارقة والصنعة البديعة المتألثة في كل مكان. ■

(*) كتاب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: أ.د. الصنصافي أحمد القطوري.

باتت تصاميم العظام الإنسانية تشكل مصدراً للهندسة المعمارية الحديثة. لقد نجح مهندسان معماريان بريطانيان في تصميم جسر مستلهم من عظام العمود الفقري.

إن الكائنات الحية تستطيع أن ترفع الأحمال الثقيلة بمتنهي السهولة بفضل تكوين هيكلها العجيب ونظامها العظمي الخارق الذي متعها الخالق الحكيم به. "كريس ويليامز" من جامعة "باث" يقول: "ليس هناك أدنى شك في أنه لو تمت مقارنة يد الإنسان مع أي جهاز مُصنَّع، فسيُتضح أن هيكل اليد العظمي يعمل بصورة أكثر دقة وأرقى جودة".

إن العظام تمتلك تكويناً هندسياً في متنهاى التعقيد والتركيب. الأمر الذي يضع الباحثين أمام جهد كبير للاستفادة منه في التصاميم المختلفة. يد أن "ويليامز" وزميله "نسوغه" قد طوّرا نموذجاً في الرياضيات أثبتا من خلاله إمكانية إنجاز منشآت معمارية تشبه التصاميم العظمية. إن "ويليامز" استطاع أن يبني جسره المركب ويعبر عنه بالاعتماد على معادلة رياضية بسيطة. فلقد كانت الجسور التقليدية تتكون من عناصر كثيرة ومختلفة في خواصها الميكانيكية؛ كما أن الثقل الذي يحمله كل عنصر يختلف كذلك. وفي هذه الحال يصعب التكهّن بالكيفية التي ستتحرك بمقتضاها هذه العناصر بعد تركيبها. فمثلاً جسر "ميلنيوم" في لندن بدأ

رائد الفكر الإسلامي الحديث



شيخ الإسلام مصطفى صبري

أ.د. عمار جيل*✦

نبذة عن حياته

فمن هو شيخ الإسلام مصطفى صبري وأين نشأ وترعرع ونعلم، وما الأعمال التي تؤكد ما ملنا إليه في مدخل المقالة؟ ولد الشيخ مصطفى صبري من أبوين تراكين في تاريخ ١٢ ربيع الأول ١٢٨٦ هـ - ١٨٦٩م في الأناضول بمدينة "توقاد" التي ينسب إليها. تتلمذ في بداية تحصيله العلمي على يد والده الأستاذ أحمد التوقادي، وأتم دراسته الأولية في مسقط رأسه حيث حفظ القرآن الكريم بها، ثم واصل رحلة التحصيل بمدينة قيسري، ثم انتقل بعدها إلى الآستانة ونال إجازتين. انخرط مصطفى صبري ابن الثاني والعشرين ربعا في سلك كبار المدرسين بصفة أستاذ محاضر في جامع السلطان محمد الفاتح، بعد امتحان التدريس

العلماء في الثقافة الإسلامية ورثة الأنبياء، لهذا يعد عملهم امتدادا لعمل الأنبياء، فينسجون وفق مسلك الأنبياء في إنقاذ مجتمعاتهم من دركات فساد الاعتقاد والأخلاق والقوانين وسائر الأحوال. والقيام بتلك الوظيفة على أكمل وجه يقتضي من العلماء استصحاب المعطى النقائي والحضاري الذي تنحرك فيه دعوتهم فاعلة ومتفاعلة. ولعل أصدق أمثلة معبر عن استحضار لتلك المعطيات من الناحية النظرية، العمل الجبار الذي أنجزه شيخ الإسلام مصطفى صبري رحمه الله؛ فقد كان بحق رائدا من رواد المقاومة الفكرية في المجتمع العثماني الحديث.

أيقن من الدليل التجريبي، ويعد النقاش في هذه المسألة تأريخاً لوجودها في البيئة الإسلامية المعاصرة.

- ناقش أدلة فلاسفة الغربيين على وجود الله، كما ردّ شبه النافين من الملاحدة. وهذا الجهد يدل على إحاطته بالفكر والفلسفة الغربيين عامة بخلاف ما ذهب إليه بعض الباحثين.
- حارب الشبه المعربة عن الفكر الغربي (المترجمة)، والتي منها الاستخفاف بالدليل العقلي والاستناد الكلي للدليل التجريبي، حتى غدا المنهج التجريبي هو المنهج الأصيل والوحيد الممثل للثقافة الإسلامية.

ولقد نشر للشيخ مصطفى صبري مقالات باللغة التركية والعربية في الجرائد اليومية، كما نشر له مقالات في المجالات العلمية في تلك الفترة. وتعد هذه المقالات على تنوعها دفاعاً عن الإسلام وإبرازاً لقوته العلمية. إنه حاول إرجاع هبة الإسلام المفقودة، وذلك ببعث قوّته العلمية والفكرية في ساحة كثر فيها العلماء المعجبون بالغرب وحضارته وفلسفته، حتى عد المنافع عن دينه وحضارة أمتة نشازاً يشار إليه بالبنان.

سمات مؤلفاته

القراءة الفاحصة لعناوين المؤلفات بيّن بجلاء أننا أمام شخصية علمية نذرت نفسها لمداخلة الباطل والدفاع عن الحق في العلم والسياسة. فالعناوين المختارة دالة بنفسها على ملكة المطارحة، ويؤكد هذا المسلك القراءة الأولية لما كتبه الرجل. إن المصطلحات الموظفة في التعبير عن عناوين الكتب والمقالات تدل بنفسها على العقلية الجدلية التي يتميز بها.

إن كتبه باللغة العربية أكبر من أن نشرحها لدلالاتها المباشرة على ما رمنا بيانه في الفقرة السابقة. انظر معي لفظ "النكير"، فهو دال بنفسه على الاستنفار والإنذار والتنبيه مع شدة في اللفظ، إنه نكير على منكري النعمة من الخلافة والأمة. وأعمل مسلك الإنكار نفسه في كتابه "مسألة ترجمة القرآن"، فقد عرضها كمسألة يراد توجيه الأنظار فيها إلى رأي مرجوح، فرام من خلال المطارحة الهادئة والهادفة إلى بيان القول الفصل في المسألة. ونسج على المنوال نفسه في كتابه "القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون بالغيب"، فحاول الفصل في مسألة كثر فيها الكلام وفق مشارب الآخر، لهذا ركب فرسه للمداخلة والمرافعة عن الغيب الذي يراد إبعاده خدمة للثقافة الغربية وانسجاماً معها.

بدرجة مدرس عام سنة ١٣٠٧هـ/١٨٩٠م. وقد تخرج على يديه عدد لا يستهان به من الطلبة، ويذكر أنه سلّم إجازات خمسين طالبا. اختير بتاريخ ١٦ يناير ١٩٠٠م عضواً في ديوان القلم (أمانة السر). واختارته هيئة كبار العلماء المعروفة بالجمعية العلمية رئيساً لصحيفتها الأسبوعية التي كانت تصدرها بعنوان بيان الحق، ليعين بعدها عضواً في دار الحكمة "هيئة كبار العلماء"، تولى بعدها تدريس الحديث الشريف في مدرسة السليمانية. اختير نائباً عن مدينة توقاد في المشروطية الثانية بتاريخ ١ يناير ١٩٠٨م، ثم تولى في عهد وزارة الدمام فريد باشا الأول المشيخة الإسلامية سنة ١٩١٩م بناء على الإرادة السلطانية، وظل محتفظاً بمنصبه في الوزارتين المتعاقبتين.

ولما ضاق به حال البلاد بناء على ما تعرّض له من ضغط وتقييد اضطر إلى الهجرة. سافر إلى مصر سنة ١٩٢٣م ومنها إلى لبنان، وبقي على تلك الحال متنقلاً، فزار مكة، وعاد إلى مصر سنة ١٩٣٢م وهذا بعد الإقامة القصيرة بتركيا.

آثاره العلمية ووقفه مع كتاب "موقف العقل"

تنوّع آثاره العلمية على العديد من أنواع التأليف؛ ففيها الكتاب الجامع وفيها الكتاب البسيط ومنها أيضاً المقالات المتخصصة. وقد ألّف باللغتين العربية والعثمانية (التركية القديمة). وأهم كتبه: النكير على منكري النعمة من الخلافة والأمة، موقف البشر تحت سلطان القدر، قولي في المرأة ومقارنته بأقوال مقلدة الغرب، القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون بالغيب، موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين.

تضمن كتاب "موقف العقل" زبدة أفكاره وآرائه السياسية والعلمية. فهو كتاب غني بالمطارحات الفكرية المتنوعة حيث تجد المناقشات الفلسفية العالية والكلامية الدقيقة والسياسية في جانبها النظري والعملية. والكتاب من عنوانه يدل على أن الغرض الأصلي منه هو الدفاع عن عقيدة الإسلام. والقيام بهذا العمل فرض عليه الحديث المسهب عن كثير من القضايا حيث أنه:

- كشف المؤامرات التي تعرّض لها الإسلام من زاويتي التحدي بالسلاح من خلال هجمات الغربيين، والتحدي الفكري العقدي الذي تقوده قوى الإلحاد والفجور، فعمل بهذه المطارحات على مجابهة الفريقين.
- بيّن في كتابه قيمة الدليل العقلي مقارنة مع الأدلة التي استند إليها المثقفون الغربيون أو المتغربون. فبرهن بأن الدليل العقلي



وبذلك المنهج كتب كتابه "قولي في المرأة"، إذ يدل بقية العنوان على الغرض الأصلي من الكتاب "ومقارنته بأقوال مقلدة الغرب". إنه يرمي إلى إبطال أقوال

الغربيين ومقلديهم في مسألة المرأة في الإسلام.

أما موسوعته "موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين" فهو بين من عنوانه "موقف". فهو دفاع عن موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين ضد أولئك الذي نصبوا بينها برازخ لا تتجاوزها، بينما هم يتضافرون جميعاً (العقل والعلم والعالم) في الدلالة على بطلان أقوال المنكرين والملحدّين وصحة ما ذهب إليه أهل الإيمان برب العالمين.

وتتأكد النزعة التي أصبحت في الرجل ملكة أكسبته الاستقلال الفكري فيما قرأناه في تلك المؤلفات، إذ يصرح بأنه لا يريد "أن يقول بفكرة إن قال بها كبير أيا كان، ولا يتخلى عنها إن لم يقل بها أو قال ثم رجع عنها". لهذا تراه لا يوجه اهتمامه إلى تحقيق رأي فلان أو علان، ويرى ذلك شأن غير الباتين في الحكم بعقولهم فيوازنون درجة المذاهب في الصحة أو الفساد بدرجة مراكز المنتمين إليها.^(١) وتماشياً مع ما ذكره تراه ينقد الخطأ حيث وجده غير مهم بمركز القائل، ينتقد الغزالي وابن تيمية وابن القيم وغيرهم من العلماء.

أما بالنسبة للعلماء المعاصرين فقد ناقش أقوال أكثرهم شهرة كالشيخ جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وشلتوت... وبالدرجة نفسها التي ناقش بها فلاسفة الغرب كباركلي وهيوم وكنط... وقد سبب له هذا النقد كثيراً من الحرج والمتاعب، فقليل له "كيف تنقد هؤلاء الأعلام؟" فقال "إن كتابي كتاب مبادئ لا كتاب تراجع".^(٢) إنها كلمة رائعة يجب أن تكون قانوناً يعمل به في تمحيص الأفكار والآراء بصرف النظر عن أصحابها ومراكزهم.

جهوده العلمية

المتبع لعناوين كتب الشيخ مصطفى صبري يدرك أن المقصد الأساسي من مؤلفاته هو الدفاع عن الإسلام والعلوم الإسلامية بصفة عامة، وذلك بصدد المحجمات التي تعرّض لها من قبل أبنائه، وخاصة تلك التي تلبّست بالإلحاد القائم على المبادئ المادية في العلوم أو التي قامت على المبادئ القومية في الجانب السياسي.

لهذا انصبت جهوده على محاربة العقليات السائدة في الوسط الثقافي والسياسي، وعلى رأسها محاربة العقلية الآيلة إلى الإلحاد في البيئة الإسلامية المعاصرة. وأصل هذا الداء - في رأيه - الذي ساق المتعلمين الجدد إلى الشك المنتهي إلى الإلحاد اعتقاد أنه "لا يثبت وجود الله علمياً، لأن العلمية ربطت بالثبوت التجريبي الحسي وفق ما ثبتت به سائر المعارف والعلوم في العلم الحديث، وهذا لا يعتدّ بالدليل العقلي لعدم إمكان سلامته من الخطأ، وبالتالي لا يمكن الوثوق به"، فنجم عنه تسرب أمراض خطيرة إلى بيتنا الإسلامية، لعل أهمها:

- عدم الاستناد إلى الأدلة النقلية، وترتب عليه إنكار مسائل غيبية ثابتة، واضطربهم هذا إلى التأويل مسيطرة للعلم الحديث، حتى غدا التأويل المتعسف مسلماً لدى كثير من أعلام هذا العصر، وقد كان محمد فريد وجدي أكثرهم غلواً ومسيرة للعلم الوضعي (التجريبي الحسي).
- عدم التعويل على الأدلة العقلية في إثبات واجب الوجود، وحصرت الأدلة في العلم الحديث المبني أساساً على قاعدتهم المشهورة "كل معقول لا يؤيده محسوس لا يعتد به"، رغم كون القاعدة مبطلّة لنفسها بنفسها لأنها "معقول لا يؤيده محسوس"، فنجم عن ذلك إهمال المنطق والعلوم التجريدية، وحصرت الثقة في المحسوس، وهذا ما يفسر المحجمات التي تعرّض لها علم الكلام.
- الفصل بين الدين والسياسية؛ وقد حُدم هذا المبدأ بطريقتين اتخذت أولاهما الطريقة المباشرة كالمحاولة التي قام بها الشيخ علي عبد الرازق؛ وسلكت الثانية طريقاً غير مباشر من خلال إخراج الفقه من دائرة الدين وفق ما ذهب إليه الشيخ محمد مصطفى المراغي، ويقرب منه قوله بجواز التعبد بالقرآن المترجم.
- ظهور محاولة إنقاذ الدين من العقل وفق ما قام به الفيلسوف الغربي "كنط" حينما أقام دليل العقل العملي على وجود الله (دليل الأخلاق). ومبنى هذا الرأي التأسيس للعقيدة المسيحية التي لا تتلاءم والعقل، لهذا عدت محاولة النسخ على منوالها متجاوزة لكل مسلمات العلم، إذ تختلف الديانة الإسلامية عن الديانة المسيحية المحرّفة في أساسهما العقدي. فأساس الأولى الفصل بين عالمي العقل والقلب الذي من مهماته العقيدة والإيمان، بخلاف ما هو عليه الإيمان في الإسلام، فهو



- حاول بيان المرض العقلي الذي هيمن على العقلية في مصر الحديثة نظراً لخطورته البالغة، إذ يرجع إليه حسب تقديره سبب هلاكها في الدنيا والآخرة إن بقي الأمر على حاله.^(٨)
- الدعوة إلى إصلاح الأوضاع العلمية في العالم الإسلامي، بصفته الطريق الوحيد للنجاح السياسي والاجتماعي في الحاضر والمستقبل.

موقفه من المهجمة المنظمة على العلوم الإسلامية

عمل الشيخ على عدة جهات لمداغة الهجمات التي تتعرض لها العلوم الإسلامية إرضاء للفكر الغربي الحديث، وبهذا الاتجاه قام بجهود جبارة في المطارحات الإعلامية والسياسية والتعليمية، وتحلى هذا المسلك في الجهود الآتية:

- العمل على بيان الخلل الطارئ على العقلية الإسلامية وخاصة في تسليم زمام أمورها إلى الفكر الغربي ممثلاً في الفلسفة الغربية ولا سيما الوضعية. وقد سعى جاهداً في هذا الجانب إلى بيان بطلان أساس ما تبنى عليه هذه الفلسفة، فبين الفرق بين الدليل العقلي التجريدي والدليل (العلمي) التجريبي، فبرهن على تفوق الأول على الثاني، بل أساس دلالة التجريبي مبنية أساساً على الدليل العقلي في مرحلة من مراحل الاستدلال أو تبليغ الدليل.
- ناضل حاملي الفكر الغربي في البيئة الإسلامية فحاول قطع الطريق على أولئك الذين حاولوا التعامل مع الثقافة الإسلامية من منطلق الفكر الوافد، وكأن الثقافة الإسلامية عارية عن كل أصالة وقوة إقناع.
- دافع الشيخ عن الخلل المتوقع من تصريحات بعض كبار أعلام المسلمين في العصر الحديث، فدافع عن معجزات الأنبياء بوصف إنكارها طريقاً معبداً لإنكار كل ما له صلة بعالم الغيب الذي منه عقائد المسلمين، وما ركب ذلك إلا خوفاً من استئثار هذا الداء العضال في أوساط الأمة، فإنه إن تمكّن منها سيأتي على الأخضر واليابس.
- دافع عن موقع الفقه في الشريعة الإسلامية والدين الإسلامي عموماً، خوفاً من يأتي اليوم الذي لا ندري فيه كيف نعبد الله، وخوفاً من أن يصبح الفقه ليس من الدين على قول بعض العلماء المعاصرين.

موجه إلى العقل في اللحظة نفسها التي يتوجه إلى الوجدان. وقد رام تحقيق هذه المهمة المستعصية الشيخ فريد وجدي، فحاول إقامة البرهان على وجود الله تعالى دون الاستناد إلى الدليل العقلي^(٩)، وهي محاولة لا يمكن أن تنجح ولا ينبغي لها أن تنجح، وإن نجحت فإنها من قبيل الغلطة الناجحة، لأنها متصورة في المسيحية وغير متصورة في الإسلام.^(١٠) فالمسيحي يضطر إلى إهانة عقله ليسلم له دينه، وكذلك الحال بالنسبة للملحد الغربي والشرقي، فإنه يضطر إلى الاستهانة بالدين ليسلم له عقله. والمسلم بخلاف ذلك تماماً؛ فالعقل والدين لا يفرقان حتى غدت عند المسلمين قاعدة مشهورة "من لا عقل له لا دين له".

- تسرب ضلال الاستخفاف بالعقل، وتأصل ذلك بانتشار المذهب التجريبي وبناء العلم عليه بعد الفيلسوف بيبكون، فطبق المذهب التجريبي بطريق الفلسفة الوضعية على العقائد، وقد زاد الأمر شناعة شيوع تقليد كل ما وفد إلينا من الغرب أو صدره إلينا.^(١١)

وفي ضوء ما سلف حصر الشيخ مهمته فيما يأتي:

- مكافحة الشبهات ومكافحة مروجيها والكشف عن المكامن التي يتستر المثيرون لها، حتى يتزعزع مكان الشبهات ومكانة مثيريها في قلوب الناس كائنين من كانوا، "فتنهار الشبهات ومروجوها وتسلم عقيدة المؤمنين من شرورهم وتساؤلهم".^(١٢)
- الدفاع عن مركز علم الكلام وإثبات صدقه وصحة استثمار معارفه، والسعي إلى إثبات أن وجود الله لا يمكن أن يستند إلى الدليل التجريبي الجزئي الذي فتنهم، ولا يكون بغير الدليل العقلي، لأن الدليل العقلي أقوى وأيقن من الدليل التجريبي.
- محاربة اللادنيين بالقضاء على كل شك يرمون إلى تكريسه بطريق الإلحاد. وهذا الصدد عمل على شحذ المهتم وتبنيه العقلاء إلى خطر تسرب العقلية الغربية المناوئة للدين إلى أذهان المثقفين المسلمين، ويتطلب هذا الجهد سرد شواهد من كلمات رجال يستدل بأهمية مراكزهم الرسمية والأدبية على أهمية المسألة^(١٣)، لهذا اضطر إلى تفحص أقوال وأفكار الفلاسفة الغربيين وأيد رأيه بكثير من أقوالهم وتصريحاتهم.

أصول الدين" (٩)، لهذا عرف بين أهل الاختصاص بسعة الاطلاع والقدرة الفائقة على المناظرة.

قال عنه محب الدين الخطيب "فحل الفحول الصائل الذي يعد فضله أكبر من فضل معاصريه" (١٠) لأنه دافع عن الإسلام في أيام كان فيها الانتقاض على الإسلام باسم الإسلام وبمباركة علمائه. وقال عنه الشيخ زاهد الكوثري "قَرَّةُ أعين المجاهدين"، وقد مدحه الشيخ عبد الفتاح أبو غدة قائلاً "إن كتابه موقف العقل هو كتاب القرن بلا منازع"، وقال الشيخ البوطي عن كتابه آف الذكر "هو كتاب لا مثيل له".

جوانبه الأخلاقية

عانى شيخنا رحمه الله طوال حياته من الفقر الذي كان به فخره؛ فقد عاش فقيراً ومات على تلك الحال غير آبه بجمع حطام الدنيا. وأكبر شاهد على ما ذهبنا إليه اضطرابه إلى بيع كتبه ليحصل على ثمن تذاكر سفر من الدرجة الثالثة بالباخرة له ولسائر أفراد أسرته، وذلك من الآستانة إلى الإسكندرية، وهذا رغم توليه منصب "شيخ الإسلام" لسنوات عديدة.

وكانت شجاعته مضرب الأمثال بين علماء عصره؛ فقد حارب الاتحاديين وعلماء الدين المتغربين، ولحقه من جراء ذلك أذى كبير من قبل المثقفين والساسة. وقد عمل طوال حياته على تغيير الوضع نحو الأفضل، وقد زاد نشاطه منذ أن أحس بالخطر المحدق بالدين الإسلامي في العالم الإسلامي، وبقي على ذلك المنهج غير مترعز أو مستجيب لترغيب أو التهيب.

غادرنا الشيخ مصطفى صبري رحمه الله إلى عالم الخلود من الأنبياء والشهداء والصالحين بمصر ٧ رجب ١٣٧٣ هـ الموافق ٢ من مارس ١٩٥٤ م. رحم الله شيخنا وأجزل مثوبته، ونفعنا بتجربته وأفادنا من علمه، إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير. ■

(٩) جامعة الجزائر المركزية / الجزائر.

الهوامش

(١٠) موقف العقل، ٩٢/٣، ٣٨٦/٤.

(١١) المصدر السابق، ٣٨٦/٤.

(١٢) أنظر: موقف العقل، ١-٦٨، ٤٠٦.

(١٣) موقف العقل، ١٥٧/٢.

(١٤) المصدر السابق، ٣٢٣/٢.

(١٥) المصدر السابق، ٤٤/١.

(١٦) المصدر السابق، ٤٤/١.

(١٧) المصدر نفسه، ٦٦/١.

(١٨) المصدر السابق، ٣٨٧/٤.

(١٩) مقال محب الدين الخطيب، مجلة الفتح الإسلامي، العدد ١٩٤.

- دافع عن الحديث النبوي ضد أولئك الذين اختصروا الحديث الصحيح من الكتب المدونة بنسبة الواحد من مائة وخمسين حديثاً، بناء على تفسير خاطئ لقول البخاري بأنه لم يصح عنده إلا أربعة آلاف حديث من ستمائة ألف حديث، فراموا تطبيق القاعدة على الأربعة آلاف حديث التي استخلصت من الستمائة ألف حديث. ونظراً لبطلان هذه الأفكار، بل ولحملها بذرة الفناء فيها، فقد أفل نجمها وقبرت إلى غير رجعة وعادت للسنة مكانتها في البيئة الإسلامية المعاصرة.
- دافع من منطلق معرفي عن وضع المرأة في الإسلام، وناقش ما يهيا من قوانين وتصورات يراد فرضها على الأمة. فكشف بأسلوب رائع أصل الداء الذي حاولوا تسويقه في مجتمع النساء، وأرجع الداء كله إلى تقليد الغرب حتى في أوضاعه التي لا يحسد عليها، فأريد تحويل المرأة إلى سلعة تتداول وتتقاذفها الأجسام الآسنة ذات الروائح الكريهة أولئك الذين لخصوا وجود النساء في المتعة واللذة ففقدوا إنسانيتهم وأسروا لشهواتهم.
- أرجع الخلل في الإعجاب بالغرب في السياسة إلى الخلل في التكوين الثقافي. فالمسألة السياسية ترجع أساساً إلى خلفية ثقافية يجب أن يبدأ الإصلاح منها. فالإصلاح الثقافي أصل الإصلاح السياسي، لهذا رتب الشيخ الأولويات في بداية عهده بمداخلة العمل السياسي الأعرج الذي يراد فرضه على البيئة العثمانية الجديدة، ولكن لما يئس من نجاح محاولات الإصلاح السياسي المباشر سواء بطريق الحوار والمطالبة الفكرية، تأكد أننا إنما لدغنا من جهة الثقافة والتكوين الدقيق في العلوم الإسلامية. ومن ثم مال إلى طريق الإصلاح العلمي بالتأليف والنصح المستمر للمسلمين وعلمائهم. وأكبر شاهد على ما ذهبنا إليه آخر كتبه تأليفاً كتابه "موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين". فقد بين وما لا مزيد عنه أن مشكلتنا ثقافية بالدرجة الأولى، ويجب تعهدها بالإصلاح والتنبيه والتيسير في كل الأوقات.

أقوال العلماء عنه

تكاد تتفق كلمة الباحثين المعاصرين على أن الشيخ مصطفى صبري نسيج وحده لا مثيل له بين بني عصره. فقد ظهرت ميوله إلى العلوم العقلية من كلام وفلسفة ومنطق وما شاكلها من معارف منذ الصغر، يؤكد ذلك قوله عن نفسه: "الاجتهاد في العلوم العقلية يلتئم مع فطري ومزاجي والتي لا يتعد عنها علم



كأني أكلت

جمال أمين*

ل

كان شريط المساجد اللامع عالقا في جدار ذهنه المشيع بالنفاذ الروحي. الشيخ إسماعيل أفندي حمامة مسجد كما يقول عنه تلاميذه الخلف.

كبابه الجامع، ذرات فطرته البيضاء، طائرته الإيماني المحلق في الأعالي، تسكن كلها مآذن وقباب إسطنبول المتوهجة بالندى والظهر. المساجد السلطانية العملاقة تستبطن أحاسيسه الدافئة... أذائها المطلول المبعوم... ابتهاؤها الندبة المتموجة... ترايلها المعرشة بالأخان المرشوشة الغضة. ويلج باحائها الفسيحة مد البصر، يواجهها الرخامية المصقولة، فيتوثب قلبه الرهيف، وتنبسه أحاسيس سلطانية عظيمة، لعظام بناء، وسواعد متوضعة، ومحاميل حجارة منتقا بعناية، و"سنان" المعلم العظيم يرشها بلمسات فنه الساحر المتكلم.

كان يسبح بإصراره مذهولا وهو يلج الصدقات المكنونة بسر السماء، وغمصه محاربها الفارحة... أعمدها الأسطوانية الرابضة... قبابها الأهرامية السماوية... لغات كثر تناجي قلبه المدهوش... تنبعث بنمنماتها الساحرة: الضوء المتكسر المشعث المتماوج، اللون الطاووسي السابغ، الخط المعشوشب الفنان، الزجاج الفسيفسائي المزركش، رجلاه لا تقويان على حمل

عراجين عشقه المنهدل "بالدهش" و"العطش". كم قضى لبالي قمرًا في باحة مسجد "الفاتح"، قرب الضريح الرخامي الجاثم في ظلال الشجر الفينان، يستل أحلامه المتوثبة، يناجي عرائسها المخبوة.

إن ما يقلقه ويمضه هو ضيق ذات يده، وانحباس حياته في دائرة العطايا النزرة المنقطعة. منذ نزوحه المبكر إلى إسطنبول رفقة شيوخه الروحي وهو يعيش في ظلال التكاي والزوايا، بين همهمات الذاكرين، وتوسلات الزائرين، ورباطات المريدين، إلى أن ورث (سر) المشيخة الروحية بزوايته المتواضعة، فازدادت أعباءه أنفالا من إشراف على مواسم تعبدية خاصة، واستقبال للعطايا والهبوات المتنوعة، واحتفاء بالضيوف والزوار الوافدين،



وإنفاقات متواصلة على تلك المراسيم والموائد. فما يأتي به نهر اليوم يتلعه بحر الغد. والدائرة تدور، والأيام تدول، ورحى العمر تطحن الرغائب الحسان، وظلالها تبهت وتصفر بفعل اليبوسة الزاحفة، وصراع محموم بدأ يشتعل ويتلظى بين عقله السؤول وقلبه الملول، بين طموحه الأخروي وإنجذابه الدنيوي، بين رسوم العبادة وعبادة الرسوم، بين ولائم الطاعة وطاعة الولائم... بين وبين ومريديه. قال عنه مريده (ن): "إن شيخنا إسماعيل أصابه ما أصاب شيخنا جلال الدين الرومي مع التبريزي من خلوة عن الأتباع والزوار وسياحة انفرادية في مساجد اسطنبول العتيقة". وشاهده مريده (ش) وهو يتسلق قمة (شامليجا) قبل الغروب، مقتعدا مكانه المعلوم قبالة المساجد/الأهرامات مذهولا... مشدوها... ملتاغا. وراقبه صديقه الدرويش (ع) وهو يطوف بمساجد السليمانية والفتاح والسلطان أحمد، لا تطرف له عين ولا يغمض له جفن، ولا تكل له قدم، ثم يستلقي في أفنائها متأملا سارحا يعجب من جمالها المجسد الضافي. وقالت عنه زوجته (ر): "إن زوجي قد أصابه الذهول والذبول منذ تلك الليلة التي قضاهم معتكفا في مسجد الفتاح منتصف رجب الماضي".

كان إسماعيل أفندي مستلقيا في باحة مسجد الفتاح، وهو يستعيد شريط حياته الحافل، ورشاش زيد تلك "الرؤيا" الغربية يمتلك مجامع قلبه وروحه. في نفس هذا المكان المقدس وفي مثل هذه الساعة الليلية الواعدة... شاهد في الحلم خيال محمد الفتاح قادما من المحراب الرخامي... ينتصب قبالة بلباسه الأبيض الناصع... عطور سماوية تفعم أنفه، صوته اللذي يسر في أذنيه حديثا نبويا مأثورا "من بنى مسجدا لله ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتا في الجنة"، ثم يغيب خياله وابتسامه وضئته ترسم دوائر النور على وجهه الواضح. يغيب وتغيب منذ تلك اللحظة الفاصلة رغبته التي استطلت مثل الأظافر حتى غدت مخالب تخدش إيمانه الأخروي.

إن ما يقلقه ويمضه هو ضيق ذات يده بفعل الإسراف الزائد، والعطايا المهذورة في الولائم والضيافات. جبال من الجليد العائم الكاذب تحجزه عن التحديق والتحليق. وفي مثل لحظة كلمح بالبصر قرر -وذكرى الفتاح لا تطرف عينها في خياله المشبوب- بناء مسجد -ولو كمفحص قطاة- يكون أساسا ركيئا لبيت لا محدود في الجنان... "يا لروعة التقابل الشهودي الغيبي ينث شهدا وحلاوة من كلام الرسول المعلم ﷺ -قال ذلك محدثا نفسه- بيت لله فوق هذا الكوكب الهاوي، وبيت لك في الملأ الأعلى، أي "وجبة" مجزية يمنحها لك هذا الحديث، أي مصير خالد يمنحه

لك هذا الألق النبوي... لو وصّعت سنوات الزوايا والتكايا في كفة أخرى لطاشت بالأولى لثقلها الأخروي).

تذكر في غمرة هذا التحول النفسي/الكياني "سر" عظمة السلاطين الأوائل... سر امتدادهم التاريخي الخصب في حنايا المعمور وثنيا الدهور... إنها المساجد/الأهرامات التي تنتشر في ضفاف البسفور كأزهار الأقحوان متفتحة باسمه قبالة السماء المغسولة. "إنك يا إسماعيل ستنافس عظمتهم الأخروية بعد أن غلبوك في عظمتهم الدنيوية، ستنتشر ذكرك بهذا المجد الموعود في عالم الآخرة، وهي خير وأبقى". هكذا حدث نفسه القلقة.

قرّر مصمما في غمار تحولاته سلوك رياضة نفسية جديدة تحقق له حلم حياته الأخروية. إنها "لعبة الوهم" المتبادل بينه وبين نفسه، وهم التشيع بلذائذ الأطعمة والأشربة، وهم الموائد الممدودة الحافلة في المواسم المكرورة والضيافات المتجددة. قرر تحطيم وهم "التشيع" بمعمل إيمانه الأخروي... "الاستغناء" و"الادخار" هما شعاره الجديد في رحلته الجبلية الجديدة، وهو يتوقل حزون النفس وذراها.

قالت عنه زوجته: "كلما أحيرت زوجي بأطياب الطعام التي ستشترى له، رفض ذلك ورد ثلثيها وأبقى على الثلث فقط، مدخرا نقودها في صندوق خشبي مرددا جملة غريبة (كأني أكلت... كأني أكلت...)"

وقال عنه جاره البقال (ف): "كلما همّ الشيخ إسماعيل باقتناء فواكه الصيف النضيجة كعاداته، أسرع بإرجاعها كمن لدغته أفعى قاتلة مرددا كلاما غريبا (كأني أكلت... كأني أكلت)". وقال عنه مريده: "إن طقس (الإنجذاب) الذي جلل شيخنا في سنواته الأخيرة أصابه بالذبول والذهول، فلا هم له إلا الادخار في ذلك الصندوق الخشبي العتيق مرددا جملة المأثورة (كأني أكلت.. كأني أكلت)".

وقال عن البناء (ك): "كان الشيخ إسماعيل يتعهد ببناء مسجده الصغير بالمراقبة اليومية، بل كان يساهم بوضع لبناته الصخرية بيديه المتوضئتين. وكلما استطل البناء أبصرت وجهه الواضح يستنير بنور سماوي غريب كأنه فلق الصباح الأزهر".

وحين استتم الحلم الأخروي شكله الصخري المستدير، واستكمل زينته الزخرفية المتواضعة في طابقه الصغيرين، عقد فيه الشيخ إسماعيل أولى حلقاته الندية معلنا لطلابه وزواره أنه قرر تسميته جامع "كأني أكلت". ■

(*) كاتب وأديب / المغرب. قصة حقيقية جرت في عهد الدولة العثمانية.

حراء



هو ﷺ فوق الوصف قاطبة من حيث جوهره ومكانته،
فريد الكون والزمان بأعماقه الأخروية،
وضياؤه لهجت به الألسن قبل وجوده،
فهو باني الإنسانية من جديد، وقدمه إحسان للإنسانية جمعاء...